العنوان: القرصنة غربي المتوسط القرن 2 - 5 هـ / 8 - 11 م
المصدر: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية
الناشر: جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي
المؤلف الرئيسي: بشير، عبدالرحمن
المجلد/العدد: الحولية32, الرسالة357
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 2012
الشهر: يونيو
الصفحات: 8 - 98
DOI: 10.34120/0757-032-357-001
رقم MD: 477228
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: AraBase, EduSearch
مواضيع: إيطاليا، الموانىء البحرية، البحار والمحيطات، القرصنة، القراصنة، الحروب الصليبية، الجريمة والمجرمون، علم البحار
رابط: http://search.mandumah.com/Record/477228

**الرسالة ٣٥٧**

# القرصنة غربي المتوسط
# القرن ٢-٥هـ/٨-١١م

**د. عبدالرحمن بشير**
كلية الآداب - جامعة الزقازيق
جمهورية مصر العربية

## المؤلف:

**د. عبدالرحمن بشير**

- دكتوراه في التاريخ الإسلامي بمرتبة الشرف الأولى بعنوان " اليهود في المغرب من الفتح حتى قيام دولة المرابطين ٢٢-٤٦٢هـ/٦٤٢-١٠٧٠م " من قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الزقازيق - مصر.
- أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد، كلية الآداب - جامعة الزقازيق - مصر.

## الإنتاج العلمي:

### أولاً - الكتب:

١ - الفقيه والسلطان، الفقهاء والاعتزال والدولة في غرب العالم الإسلامي القرن ٢-٥هـ/٨-١١م، دار عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة ٢٠١٠م.

٢ - من تاريخ اليمن - صراع السلطة، الوجود اليهودي- دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٩م.

٣ - اليهود في المغرب العربي ٢٢-٤٦٢هـ/٦٤٢-١٠٧٠م، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠١م.

### ثانياً - الأبحاث:

١ - اليهود في مملكتي أراجون وقشتالة ١٣٩١- ١٤٩٢م "الصعود والسقوط"، المؤتمر العلمي الدولي الأول للعلوم الإنسانية في القرن الواحد والعشرين "آفاق جديدة" كلية الآداب، جامعة الفيوم، مارس ٢٠١٢م.

٢ - الريف في إفريقية من خلال نوازل أبي القاسم البرزلي (ت ٨٤١هـ/١٤٣٨م) دراسة جديدة في كتب النوازل، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، العدد ستون شتاء ٢٠١٢م.

٣ - العرب في عصر الموحدين بين الخضوع والتمرد، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، العدد السابع والخمسون، ربيع ٢٠١١م.

٤ - الخيل والفروسية في اليمن منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الرسولية، المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد السابع والثلاثون يوليو ٢٠١٠م.

٥ - العلاقات التجارية بين إفريقية وصقلية القرن ٣هـ/٩م، إصدار خاص، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ٢٠٠٢م.

# المحتوى

# الملخـص


هذه دراسة عن عمليات القرصنة في منطقة غرب البحر المتوسط من جانب قراصنة ينتمون إلى سكان المنطقة على الجانبين الأوربي والإسلامي. وتحاول فك حالة الالتباس بين مفهوم الجهاد البحري والقرصنة لدى الغرب الأوربي المسيحي والجنوب الغربي الإسلامي فضلا عن الأندلس، حيث تم رصد هذه الظاهرة من خلال المصادر ورأي المحدثين من الجانبين، وعرضت الدراسة لمفهوم القرصنة ومؤهلات القرصان، والفرق بين القرصنة الخاصة والقرصنة الرسمية، والإطلال على عمليات القرصنة بنوعيها في غرب المتوسط وأوكارهم في الجزر المنتشرة في المنطقة، وأهداف القراصنة على السواحل، وعملياتهم في داخل البحر ضد التجارة العابرة وضد المسافرين.

حاولت الدراسة الإجابة عن تساؤل طالما ثار لغط حوله بين المؤرخين عن البحريين الأندلسيين هل كانوا مجاهدين أم كانوا قراصنة من خلال رصد محاولاتهم فرض سلطانهم على مناطق بعينها على الشواطئ الشمالية والجنوبية لغربي المتوسط مثل سلطنة باري في جنوب إيطاليا و فراكسينيتوم على الساحل الفرنسي وتنس ووهران على الساحل الجنوبي.

وعندما مال ميزان القوى لصالح الغرب الأوربي نهاية القرن الخامس الهجري بسبب النزاع السياسي في المنطقة أتاح لقراصنة المدن الإيطالية جنوة وبيزا الاعتداء على تجارة المسلمين وسواحلهم وفرض نفوذهم على الطرق البحرية في المنطقة بدعم من الكنيسة مما يعد كمقدمة للحروب الصليبية، وأصبح المسلمون في موقف الدفاع من خلال إقامة المحارس والرباطات وتسيير القطع البحرية لحراسة قوافلهم البحرية، وفي النهاية توصلت الدراسة إلى أن عمليات القرصنة في غرب المتوسط لم تقتصر على شعوب بعينها وأن بعض الحكومات دعمت القراصنة وفرضت عليهم ضرائب.

# مقدمة

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ (سورة الكهف، الآية: ٧٩).

في البداية أود أن أُشير إلى التَّردد الذي امتلكني حينما قررت التَّعرض لهذا الموضوع الشَّائك، ومرد ذلك ندرة المصادر والمراجع العربية التي تناولت هذا الموضوع؛ خاصة عن الجانب الإسلامي، وحتى مَنْ تناولها من روادنا الفُضلاء؛ أشار إليها على استحياء، ولم يُبدِ رأياً واضحاً فيما انتهجه قراصنة المسلمين، بيد أن اتباع منهج البحث المُحايد يحتم تسمية الأشياء بمُسمياتها، دون خوفٍ أو خَجَلٍ من تشويه ماضي المسلمين المشرق وإن اعترته مثل هذه التَّصرفات؛ خاصة أن قلة من المسلمين امتهنت القرصنة في غربي المتوسط في فترة البحث (القرن ٢-٥هـ/٨-١١م) محاكاة للقراصنة الأوربيين، والولوج إلى هذا الموضوع هو ما يُنزِّه تاريخنا الإسلامي، ويبعد عن كتابته تُهمة التَّحيُّز المقيت.

وترجع صُعوبة محاولة كشف النِّقاب عن هذه العمليات إلى وضع الباحث في حرج الانتماء؛ خاصة أن المادة المُتاحة أبانت عن أن أكثر حالات القرصنة في الفترة المُشار إليها، قام بها بحارة مسلمون ضد البلاد الأوربية وسفنهم، وهذا ليس معناه أنَّ المسلمين في غربي المتوسط هم الجُناة والأوربيون هم الضَّحية، بل كانت هناك بعض الشُّعوب الأوربية التي تخصَّصت في عمليات القرصنة، وعانى منها المسلمون كثيرا قبل ازدهار بحريتهم.

ومن العبث السَّعيُ وراء تفسيرات تُجَنِّبُ المسلمين تُهمة القرصنة في غربي المتوسط، ومحاولة إلصاق هذه التُّهمة بالآخرين من البيزنطيين، والإيطاليين، والإفرنج، والنورمان وغيرهم، ولكنَّ المعيار الموضوعي هنا هو رصد ما حدث،

ووصفه بحيادٍ،، والقضية التي تضعنا على المَحَكِّ هي قضية البحرِيين الأندلسيين الذين جابوا غربي المتوسط ؛ وما دار حولهم من لَغَطٍ ؛ هل كانوا مُجاهدين أم قراصنة ؟ مما يحتم على الدراسة ولوج منحى فقهي لتعرف معنى الجهاد كما بينه الإسلام، وهو ما يُفسِّر لنا الكثير من الإشكاليات الأخرى التي تدور في الاتجاه نفسه، وعلى الله قصد السبيل.

# تداول النُّفوذ والسَّيطرة على غربي المتوسط

ورث البيزنطيون السَّيطرة والنُّفوذ على البحر المتوسط خلفا للإمبراطورية الرومانية، حتى ألصق اسمهم بالبحر المتوسط، وعرف في المصادر العربية بالبحر الرومي. فلم يكن البحر فقط هو الذي يقع في دائرة نفوذهم ؛ بل صدر من القوانين في عهد بومبي ما أعطى للإمبراطورية الرومانية الحقَّ في الإشراف على كامل سواحل المتوسط، بالإضافة إلى خمسين ميلاً داخل أراضي هذه السواحل[١]، وعندما آلت امبراطورية الرومان إلى البيزنطيين ؛ مارس البيزنطيون نوعاً من القرصنة التجارية، والرقابة على التجارة في البحر المتوسط، من خلال احتكار تجارته لصالح الإمبراطورية البيزنطية وحلفائها، وأمعنوا في احتكارهم بمنع التُّجار السوريين والمصريين من الوصول إلى أسواق الغرب، وكذلك منع تجار اليونان من نقل التجارة في مناطق القسطنطينية وبحر إيجة وآسيا الصغرى، فضلا عن منع التجارة الدولية من المرور خلال مواضع معينة من المتوسط ما يزيد عن مئة عام (٩٨-٢١٢هـ/ ٧١٦-٨٢٧م)[٢]، ومكَّنهم ذلك من بسط سيطرتهم على معظم سواحل البحر المتوسط الأوربية والآسيوية والإفريقية، ولأنَّ البحر المتوسط حلقة الوصل بين القارات الثلاث اختصُّوا أنفسهم وحدهم بالوساطة في التجارة العالمية، ولم يسمحوا لأي قوى أخرى بمشاركتهم في هذا الدور[٣].

تركت هذه الرَّقابة والحظر التجاري أثرا إيجابيا في جانب الطرف الغربي للإمبراطورية، فمنحت سفن هذه المنطقة الامتياز في الاتِّجار مع القسطنطينية خاصة، ومع موانئ البحر المتوسط عامة، وكان أكثر المستفيدين من هذا الحظر تجار المدن الإيطالية، أمثال أمالفي ونابولي وجايتا والبندقية ؛ عندما تغيَّر الوسطاء على إثر الحظر ؛ بذلك خلا المجال لسفن المدن الإيطالية في المنطقة[٤]، وتحوَّل التجار الإيطاليون من أصحاب ثغور تتمتع بامتيازات خاصة إلى وسطاء في التَّبادل التجاري

بين الغرب والشرق. نجم عن الازدهار الاقتصادي لبعض هذه المدن أن حققت مكسباً سياسياً بلغت بمُقتضاه البندقية ونابولي وبعض المدن الإيطالية الأخرى مرتبة الولايات المستقلة(٥).

وبدأت أولى محاولات المسلمين فكّ حصار البيزنطيين عن المتوسط منذ معركة ذات الصواري، ومن بعدها انطلق المسلمون في عرض البحر(٦)، ويبدو أنه كانت هناك خطة أموية ما ترمي إلى تطويق الوجود البيزنطي في البحر المتوسط عن طريق انتزاع سواحله الجنوبية ومهاجمة الجزر المتوسطية، وذلك من خلال سلسلة من المعارك بين سنتي ٢٩–٣٥هـ/ ٦٤٩–٦٥٥م دمَّروا فيها القوى البحرية البيزنطية(٧)، وفي غربي المتوسط مُنيت البحرية البيزنطية بخسارة فادحة سنة ٧٩هـ/٦٩٨م، وذلك عندما استولى حسان بن النعمان على قرطاجنة(٨). ولم تأتِ سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م إلا وقد انتهت هذه السَّيطرة والهيمنة البيزنطية على المتوسط، عندما دخل الأغالبة إلى صقلية بعد عدد من الغزوات المهمة.

حطَّم مسلمو الشَّمال الإفريقي قوة القسطنطينية البحرية، وأسَّسوا قوة خاصة بهم(٩)، وفطنت المدن الإيطالية إلى تغيُّر ميزان القوى في غربي المتوسط لصالح المسلمين؛ فبدأت في الاتِّجار مع مناطق الحظر البيزنطي، وخاصة الموانئ الإسلامية في شمالي أفريقيا ومصر. وتجلى اختراق هذا الحظر في تجارة هذه المدن خاصة البندقية(١٠) وأمالفي مع موانئ إفريقية؛ حيث اتَّجهوا صوب مصالحهم التجارية، ولم يعبؤوا بقرارات الحظر البيزنطي؛ خاصة أنَّ أمالفي كانت تُزوِّد أوربا بمنتجات الشرق(١١)، ولها علاقتها مع دول الشمال الإفريقي قبل فتح صقلية(١٢).

أصبحت القوى الإسلامية تسيطر على وسط المتوسط وغربيه من خلال الأغالبة، ثم الفاطميين من بعدهم في صقلية، وكذلك القوى البحرية المغربية والأندلسية، وساعدتهم طبيعة الحوض الغربي الملاحية، حيث تنوَّعت طرق التجارة البحرية فيه أكثر منه في الحوض الشرقي، كما أنَّ الرياح السَّائدة في الحوض الغربي

كانت تفرض صعوبات أقل على المسارات البحرية ؛ مُقارنة بالرياح المُحبطة في الحوض الشرقي، ومن ثمّ لم تكن الطرق في الحوض الغربي قصرا على المسارات البحرية الضيقة، حيث يمكن التَّغلب على معظم الصعوبات بسهولة، ومع ذلك كانت الملاحة الشاطئية على طرق محددة أكثر انتشاراً في الحوض الغربي عندما كانت الظروف السياسية والدينية تسمح بذلك(١٣)، لذلك فإنَّ القوى الإسلامية ممثلة في الأساطيل الرسمية للأغالبة وأمويي الأندلس، وغيرهم من البحريين الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص، تعددت هجماتهم على البحر الأدرياتي شرقي إيطاليا والبحرالتيراني في غربها خلال القرن٣هـ/٩م، وظلُّوا يُرهبون الشواطئ الإيطالية حتى القرن ٥هـ/ ١١م(١٤)، ولم تعد السفن الغادية إلى شواطئ أوربا والعائدة منها تنتقل في حرية بين شواطئ الشام ومصر والمغرب، وبين ما شاءت من شواطئ أوربا صادرة بالمتاجر واردة بالخيرات، وإنما خيَّم على شواطئ فرنسا الجنوبية وإيطاليا الشرقية والغربية سكونٌ، إذ لم تعد هناك سفن تذهب أو تجيء(١٥).

اتسمت سواحل المغرب من تونس وحتى المحيط الأطلسي بخصوبة الأراضي وراحة السُّكنى، ووفرة الماء ؛ لذلك كان النشاط البحري في هذه المنطقة من المتوسط جزءاً لا يتجزأ من حياته وكيانه الاقتصادي(١٦)، ورب ضارة نافعة فالهجمات القرصانية التي تعرضت لها القوى الإسلامية في غربي العالم الإسلامي قبل بناء بحريتها كان لها فوائد سياسية واقتصادية، حيث اضطرتها إلى أن تبني بحريتها وإقامة الرباطات والمحارس؛ لحماية سواحلها من القراصنة، وتحطيم السفن الغازية، فضلاً عن الإبحار بتجارتها إلى العالم الخارجي، وينطبق ذلك أيضاً على جنوة وبيزا وأمالفي وبرشلونة في شمالي غربي المتوسط بعد ذلك ؛ ففي إطار حروبها الطويلة مع البحرية الإسلامية عزَّزت قوتها البحرية، ونهضت ببحريتها، واضطلعت بدورها كدول بحرية(١٧).

أصبح غربي المتوسط بحيرة إسلامية منذ القرن ٣هـ/٩م ؛ ممَّا سهَّل على

الأسطول الإسلامي والقراصنة المسلمين الرسميين المدعومين من حكوماتهم تنفيذ عملياتهم[١٨]، حيث مكنتهم قواعدهم المتقدمة في الجزر المختلفة في غربي المتوسط على إنجاز عملياتهم بسهولة ؛ فالمسافة بين جزر البليار (الجزائر الشرقية)[١٩] في الجنوب وخليج ليون في الشمال ٢٥٠ ميلاً، كما كانت فراكسينيتوم تسيطر على بحر (Ligurian)، والبحر التيراني محصورٌ بين صقلية وسردانية وكورسيكا (قورشقة)، ناهيك عن سيطرتهم على كامل سواحل الشمال الإفريقي وجزره[٢٠].

## القرصنة والقراصنة

بدهي أن تشير الدراسة باختصار إلى التعريف بكلمة قرصنة[٢١]، ومدلولاتها في الكتابات العربية والغربية ؛ ممَّا يُجلي الصَّورة عند التَّعرض لهذا المصطلح عبر هذه الدراسة حتى لا يتم الخلط بين معانيها ؛ فهناك نوعان من القرصنة، الأول : يُسمَّى قرصنة خاصَّة، والثاني : يُطلق عليه قرصنة رسمية. أمَّا النوع الأول القرصنة الخاصة أو القرصنة الحرة، فهي ما يُعبَّر عنها بالفعل (Pirate) الإنجليزي، وأمَّا الاسم فهو (Piracy)، والكلمة مُشتقَّة من الاسم اللاتيني (Pirata) ويعني قرصانا، لكنها تعود إلى أصل يوناني، حيث تمَّ استخدامها في اللغة اليونانية قبل القرن الرابع أو القرن الثالث ق.م، وتعني : الهجوم أو محاولة الاعتداء على السُّفن التِّجارية[٢٢]، ظل هذا الاسم ملتصقا بأعمال القرصنة الخاصة أو الحرة خلال العصور الوسطى ليدلل على السَّلب والأسر من أي سفن تُصادف القُرصان، بصرف النظر عن نوع السفينة، وجنسية مَنْ على متنها ودينه[٢٣]، وتصف المصادر العربية مَنْ يقوم بأعمال القرصنة الخاصة أو الحرة بلصوص البحر[٢٤]، وكذلك بالقطاع[٢٥] ويعرِّفُها آخر[٢٦] بأنَّها مجموعة فوضويَّة خارجة على القانون تعتدي على الملاحة، وتستولي على التجارة البحرية، وتبيعها بأسعار دون سعرها الحقيقي. ومن ثمّ فإنَّ طبيعة عمل القراصنة من هذا النوع من القرصنة (Piracy) هو اعتراض مجموعة من المغامرين السُّفن التجارية أو الهجوم على السواحل يقودهم حلم الثراء السريع، وتكون السفن والسواحل كافة عُرضة لهجماتهم وغاراتهم الخاطفة، وغاية هدفهم هو الغنيمة على حساب الضَّرر العام[٢٧].

ويطلق على النوع الثاني من القرصنة : القرصنة الرَّسمية (Corsair) بالإنجليزية، (Corsaire) بالفرنسية[٢٨]، وينسب قدماء المؤرخين هذا اللفظ إلى اسم جزيرة كورسيكا (Corse) ؛ لأنَّ سُكانها اشتهروا بالاستيلاء على ممتلكات غيرهم[٢٩]، ويرى آخر أنَّ أصل هذه الكلمة يعود إلى الكلمة الإسبانية (corsrio)،

وتعني كل عمل خاص يضرُّ بسفن العدو التجارية مع تغاض واضح من السُّلطات[٣٠]. وأيّاً ما كان أصل الكلمة فإنَّ مصطلح ( Corsair) يُطلق على المتطوِّع البحري العسكري، ويعتبر بمثابة مُحارب قانوني يزاول مهمته بطلب أو بترخيص من إحدى القوات المُتحاربة، بهدف التضييق على الملاحة التجارية للخصم، والإضرار بمصالحه، ومن ثم يُنظر إليه كجندي يخدم مصالح السُّلطة التي يأتمر بأمرها، ويحافظ على ديمومة الصِّراع بديلاً عن القوات النِّظامية، ومن ثمّ فإنَّ القرصنة من هذا النوع مُرخَّصة وتحظى بالدَّعم والتَّأييد من السلطات السياسية التي كانت تُقدِّم لها التسهيلات مقابل جزء من الأرباح[٣١]. وأيّاً ما كانت قرصنة خاصة أو رسمية فالنتيجة واحدة، لكن يبقى أن نشير إلى أنَّ مصطلح القرصنة الخاصة (Pirate) يعود في أصله إلى شرقي البحر المتوسط، وأمَّا مصطلح القرصنة الرسمية (Corsair) فيعود إلى غربيه، والأخير يدلِّلُ على تطوِّر هذه المهنة بحيث أصبحت بإشراف السُّلطات الرسمية.

يخضع القُرصان لعمليات تدريب وتعليم؛ مثلما يتدرَّب ملاحو البحرية التجارية[٣٢]، ولابد أن يكونوا مهرة وخبراء بطرق البحر وبالسفن والبحار التي يُبحرون فيها؛ إذا أرادوا النَّجاح لأنفسهم، من حيث معرفة الأجزاء الحيوية من الخطوط البحرية التي تتجمع فيها السفن في أوقات معينة من السنة لأسباب اقتصادية؛ مثل مواسم التجارة في سلعة معينة، أو أسباب بحرية تتعلق بمواعيد الإبحار، ليتخذوا من هذه المناطق مقاما منها ينقضون على فريستهم، ولا غرابة في أن المناطق التي حددتها المصادر التاريخية بأنَّها مناطق تجمع القراصنة، هي مناطق الخطوط البحرية الحيوية نفسها؛ فكان وجودهم عند تقاطع هذه الخطوط بعضها مع بعض، أو في أماكن مرور هذه الخطوط بخلجان صغيرة، وكذلك بالمضايق البحرية[٣٣]، فضلاً عن أنشطتهم بين الجزر وأشباه الجزر[٣٤].

تتجنب السفن التجارية الملاحة في الشتاء[٣٥]، وكان الإغريق والرومان يتركون سفنهم التجارية في الموانئ من شهر أكتوبر إلى شهر أبريل؛ بسبب

العواصف وانخفاض الرؤية الناتج عن تزايد الضَّباب خاصة في الملاحة الشاطئية (المحاذية للشاطئ)، وظلَّ هذا الوضع قائماً منذ القدم حتى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، حيث تتوقَّف الملاحة في تلك الفترة، بل إنَّ حالة الحرب البحرية والقرصنة توقَّفت في الشِّتاء أيضاً(٣٦)، وعرف العرب مبكراً مواعيد الإبحار ؛ فعندما (قدم عطاء بن رافع الهذلي في مراكب أهل مصر) قاصداً سردينيا في ثمانينيات القرن الأول الهجري ؛ رسا بميناء سوسة ؛ فكتب موسى بن نصير لعطاء (إنَّ ركوبَ البحر قد فات هذا العام ؛ فأقم ولا تغرر بنفسك)(٣٧)، ويحتم المناخ توقف القرصنة فيتخذها القراصنة فرصة لإعادة تجهيز أنفسهم لموسم قادم، ومع ذلك لم يكن الشتاء دائما خاليا من عمليات القرصنة على ندرتها(٣٨) ؛ ففي القرن٥،٦هـ/ ١١،١٢م كان البحر يخلو من السفن والبحارة من نوفمبر إلى مارس في العالم الإسلامي، وكذلك كان يفعل الغرب المسيحي ؛ فقد كان يفرض على القبطان الذي يدخل بسفينته إلى الميناء في بيزا على سبيل المثال ألا يغادره إلا في موسم الإبحار(٣٩) الذي يبدأ من شهر مارس(٤٠).

يختلف مركب القُرصان في شكله عن المركب الحربي، ودائماً ما يُشار إلى مراكب القراصنة بأنَّها قوة مُعادية وليست سفنا حربية، ولم نجد أنَّ القراصنة استعملوا زِيّاً خاصّاً أو نوعاً معيناً من السُّفن، وفي أغلب الحالات كان القُرصان يكتفي بأول مركب يحصل عليه، إمَّا عن طريق السَّرقة أو الشِّراء(٤١)، ولم يكن هناك فارق بين المجدفين والبحارة في سفن القراصنة الكل يعمل كفريق واحد لتنفيذ مهمة معينة(٤٢)، وقد كانت السَّفينة الشَّائع استخدامها في البحر المتوسط حتى القرن ٦هـ/ ١٢م هي القادوس، وهي عبارة عن مركب شراعي ذي مجاديف(٤٣).

# القرصنة والدّين بين الشَّمال والجنوب

نشطت القرصنة الرسمية (Corsair) عندما خضعت السواحل الجنوبية للمتوسط لسلطان المسلمين والشمالية لسيطرة المسيحيين، وانصياعا لمُعطيات الفترة التاريخية التي تنتمي لعصر الإيمان، فإنَّه تمَّ إضفاء الهالة الدينية على القرصنة عند الطرفين، بمعنى اعتبار القرصنة عملاً جهاديّاً مُقدَّساً ؛ يقوم به كل طرف ضد الآخر، وإن كانت لا تعدو في أصلها عمليات قرصنة رسمية تتمُّ بموافقة الحكومات في الجانبين[٤٤]. والنصوص العربية القليلة عن النشاط البحري للمسلمين في غربي المتوسط تري أنَّ هذا النشاط كان حرباً دينية، وغزواً للدول المسيحية وسفنهم في إطار الجهاد الديني، وتصف حوليات الأديرة في البلاد التي وجه البحريون المسلمون إليها نشاطهم هذا النشاط بالقرصنة بعد توضيح ما قام به المسلمون من أعمال سلب ونهب، والفيصل هنا بالنسبة للمسلمين هو توافر نية الجهاد لديهم لاعتبار أعمالهم جهاداً، وحسب المذهب المالكي الذي ساد في غربي العالم الإسلامي ينبغي على المجاهد أن يعقد نيته على الجهاد، ولابد من توافر ستة شروط في المجاهد إذا سقط واحد منها لا يعتبر جهادا، وهي الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والذكورة، والاستطاعة بصحة البدن، وما يحتاج إليه من مال[٤٥]، أمَّا إذا لم تتوافر النية، ولم تكتمل الشروط فيكونوا مجرد طامعين في الغنم والسلب[٤٦]، وينطبق عليهم وصف الكُتَّاب الغربيين الذين يعتبرونهم قراصنة (Pirates).

ويصف المؤرخون الغربيون المعاصرون أتباع دينهم من رجال البحر أنهم المجاهدون حقّاً، وما يفعلوه بالمسلمين من أعمال قرصنة إنما وسام على صدورهم[٤٧]، ويسمي بعضهم[٤٨] هؤلاء القراصنة بالبحرية الخاصة التي تعاونت مع البحرية النظامية للدول التابعة لها (Corsair)، وعلى الجانب الآخر يعتبر بعض الكتَّاب المسلمين رجالهم من المسلمين مجاهدين ينفذون أحد واجبات الدين الإسلامي، وهو تحيُّز سافر – من الفريقين – لا يخضع لمنهج البحث عن الحقيقة

ولا يستسيغه المنطق المحايد؛ بمعنى أن كل فريق يعتبر أتباعه هم المجاهدين؛ والآخرين لصوصا غير شرعيين، ومن ثمّ اصَّطبغ الصِّراع البحري بالصِّبغة الدينية، وأصبح صراعاً بين الإسلام والمسيحية، وكانت اتفاقيات ومعاهدات السلام تمثل مجرد فترات عارضة لا أكثر(٤٩).

قَدَّم الدين قدراً قليلاً من الحماية من القرصنة، وكان هدف معظم القراصنة الذين يجوبون البحر هو سفن أصحاب الديانات الأخرى إلا في حالة حدوث حروب مذهبية داخل الدين الواحد، ومن ثمّ يعتبر النَّيل من سفن بعضهم البعض هدفاً مشروعاً، ونظراً لأنَّ بيع أبناء الدين نفسه كان عملاً صعباً فإنَّ هذا كان يساعد على جعل الصراع بين الأديان الصفة الغالبة على عمليات القرصنة(٥٠). فقد كان القراصنة المسيحيون يغيرون على سفن خصومهم المسلمين بسعادة، أمَّا القراصنة المسلمون فلم يكن واضحاً لديهم هذا الوضع على الأقل في فترة ضعف النفوذ الإسلامي على غربي المتوسط؛ إذ إنه في القرنين ٥-٦هـ/ ١١-١٢م كان قراصنة طرابلس وجربة يغيرون على سفن المسلمين التي تسير بمحاذاة السواحل الجنوبية - بمعنى أنَّ الدين لا يوفر عندهم أي حماية -(٥١).

وقفت الدولة الأموية في الأندلس موقف الدول المسيحية نفسه من رعاياها الذين كانوا يُغيرون على شواطئ المتوسط والسفن التجارية فيه، ولم يكن قراصنة قطلونية وغيرها بأقل خطراً على الملَّاحين الآمنين من القراصنة الأندلسيين، بل كانوا يعفون سفن النصارى إخوانهم من الأذى(٥٢)، وخلال القرن الحادي عشر الميلادي يرى pryor أن عمليات القرصنة الإسلامية (Muslim corsairs) المدعومة بموافقة الحكومات أدت إلى زيادة عمليات القرصنة الخاصة (piracy)، ويفسر القرصنة الرسمية كونها نوعاً من الجهاد الإسلامي، حيث أُقرَّت رسميّاً من جانب الحكام، لكنه يفرق بينها وبين الأساطيل الرسمية للدولة الإسلامية(٥٣)، كما يرى Goitein أن القرصنة الإسلامية كانت جزءاً من مجموع الحرب المقدسة ضد المسيحية، وهناك الكثير من الأسرى الرومان والطليان واليهود تم أسرهم في المتوسط عن طريق

المسلمين، وظهر ذلك جليّاً في القرن ٥هـ/ ١١م من خلال وثائق الجنيزا[٥٤]، ويرى كذلك أن القرصنة الخاصة piracy عند المسلمين أخذت فرصتها نتيجة الانشقاقات الدينية وانقسام العالم الإسلامي، حيث أضحت البحرية التجارية الإسلامية هي نفسها الفريسة في القرن ١١م[٥٥].

فرض القراصنة المسلمون كلمتهم على غربي المتوسط بدافع السلب والغنيمة وبزعم الجهاد حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وعندما حاق الضعف بالدول الإسلامية في مغرب العالم الإسلامي ومشرقه، وقويت الدول المسيحية، أوغل قراصنتهم في إظهار قوتهم من خلال سلبهم لتجارة المسلمين وإغارتهم على سواحلهم بزعم الانتصار للمسيحية، وظهر ذلك بوضوح في القرن ٦هـ/١٢م عندما أسفر هؤلاء القراصنة عن أهدافهم، بعدما غلبوا على الممرات البحرية في المتوسط، وأوضح قادتهم بأن أهدافهم الأساسية هي سفن الأديان الأخرى، وهم بذلك يعنون سفن المسلمين[٥٦]، وحتى استخدام السفن المسيحية في ذلك الوقت من جانب المسلمين للسفر، أو لإرسال بضائعهم عليها، أو تأجيرها، كان له مخاطره ؛ فالعلم المسيحي لم يكن يحمي المسلم ولا بضاعته إذا استولى قرصان مسيحي على السفينة، فضلاً عن أنَّ مُلاك السُّفن المسيحيين كانوا لا يترفَّعون عن بيع المسافرين المسلمين كعبيد، فكانت السفن المسيحية التي يستأجرها مسلمون، أو التي يمتلك فيها مسلمون نصيباً لا تزال معرَّضة لمخاطر القراصنة المسيحيين حتى وإن كانت تسافر تحت علم مسيحي[٥٧]، وهذا لا يعني أنه لم تكن هناك سفن إسلامية، لكن في ذلك الوقت كان السفر على سفن مسيحية يوفِّر الأمان، وتستطيع هذه السفن استخدام الطُّرق الرئيسية السريعة الآمنة من خطر القراصنة المسيحيين، فقد كانت السفن المسيحية أقل تعرضاً لهجوم القراصنة من أبناء دينهم، بينما السفن الإسلامية التي تعمل على الطرق الرئيسة كانت عُرضة لعمليات قراصنة الغرب المسيحي بشكل دائم[٥٨].

# ظاهرة القرصنة في غربي المتوسط

انتشرت القرصنة في البحر المتوسط منذ القدم، وظلت حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وكان يزيد من انتشارها استرخاء السيطرة البحرية[٥٩]، وأهَّلت ظروف البحر المتوسط الجغرافية الفرصة دائماً لإنتاج هذه الظاهرة، وجعلت منه حقلاً مربحاً للقراصنة ليس فقط من خلال السَّطو على التجارة في البحر المفتوح، وإنَّما أيضاً من خلال الإغارة على الساحل وسلب سكانه[٦٠] ؛ وفيما إذا كانت غايتهم السطو على التجارة الداخلية كانوا يركِّزون على الموانى[٦١]، فغربي المتوسط منذ القدم لم تنقطع فيه القرصنة وكانت الحرفة المفضَّلة لسكان صقلية التي كانت تصدر العبيد ؛ وفقاً لما جاء في أوديسة هوميروس اليوناني[٦٢]، ويزعم بعضهم أن السفينة المذكورة في القرآن إنما خرقها الخضر ببحر رادس (ساحل رباط رادس الذي يبعد عن تونس ستة أميال) وأن الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا هو الجلندي ملك قرطاجنة[٦٣] وأيا كان صحة تفسير الرواية القرآنية ونسبتها للمكان ؛ فالثابت أن القرآن الكريم يدعم وجود هذه الظاهرة عبر التاريخ ويوصم الملك بالقرصان، حيث يخضع ما يقوم به من سلب السفن المارة بسواحله لمصطلح القرصنة الرسمية[٦٤].

أسهمت الجزر المنتشرة في غرب المتوسط في عمليات القرصنة، حيث كان الهجوم على السفن التجارية من جزر كورسيكا وسردنيا وجزر البليار وساحل بحر ليجوريا[٦٥]، مثل المرض المُتوطن[٦٦]، وعلى سبيل المثال أهلت الجغرافيا الطبيعية والأحوال الاقتصادية أهل كورسيكا للقرصنة من فقر تربتها، ووعورة سواحلها، وموقعها على طرق التجارة البحرية ومساحتها الصغيرة، هذا كله جعلها تمتلك المؤهلات الطبيعية للقرصنة المُزمنة[٦٧]، كما أن جزر الساحل الجنوبي الغربي للمتوسط كانت مكاناً مناسباً لعمليات القرصنة أيضا، حيث ترسو فيها السفن العابرة للاستراحة والتزود بالماء والطعام[٦٨]؛ وهي جزر متباينة في مساحتها، ومنها ما هو معمور وآخر غير مأهول ؛ مثل جزيرة جربة التي كانت وكرا للقراصنة من

أهلها الذين أهلتهم الظروف لذلك[٦٩] وجزيرة قملارية، وجزائر الكراث الواقعة على مقربة من مرسى بنزرت وقورية بإزاء المنستير[٧٠]، والجزيرة التي تبعد رمية سهم عن جزائر بني مزغناي[٧١]، وجزيرة قرقنة التي تقع في منتصف المسافة بين قصر زياد وصفاقص[٧٢]، وغيرها من الجزر الصغيرة المنتشرة بمحاذاة الساحل.

وعلى مرِّ التاريخ عندما تكون البحار آمنة من القراصنة واللصوص نجد السواحل عامرة بالسكان، أما إذا سدر القراصنة في غيهم فإن السواحل تخلو من القاطنين، حيث يتراجعون إلى الداخل في ظل زيادة عمليات القرصنة، وتعتبر السواحل أماكن طبيعية لسكنى القراصنة، خاصة إذا كانت ذات طبيعة قاحلة وصخرية ؛ مثل الكثير من سواحل البحر المتوسط الأمر الذي يؤدِّي إلى هجر السكان للساحل[٧٣]. ومن ثمّ تصبح هذه السواحل مكاناً ملائماً لعمليات القرصنة ومأوى مناسباً للقراصنة، فخلال فترة الاستعمار الإغريقي للسواحل الجنوبية لإيطاليا تأسست مدن وازدهرت على هذه السواحل، وفي العصور الوسطى أصبحت خالية من السكان بسبب اعتداء قراصنة دلماشيا والوندال، والمسلمين، والبربر، وظهرت مدن مثل بيزا وغيرها بعيداً عن الساحل[٧٤]، وعلى الجانب الآخر أسس المسلمون مدنهم بعيدا عن الساحل في فترة الفتوحات الأولى خوفاً من البيزنطيين وقراصنتهم، ويعتبر بناء مدينة القيروان نموذجا مثاليا للمدن المحمية من القراصنة، وعندما امتلك المسلمون سفنا للدفاع عن سواحلهم ظهرت المواني الإسلامية على استحياء، عندما اختار حسان بن النعمان مدينة تونس البعيدة عن البحر المفتوح خوفاً من هجمات البحرية البيزنطية وقراصنتها، حيث تقع على بحيرة ضحلة تربطها بالبحر قناة قصيرة وهو ما سهل تحصينها بدرجة كبيرة لتكون ميناء للقيروان[٧٥]، ثم ما لبث أن تطورت البحرية الإسلامية في شمالي أفريقيا، وأضحت مرهوبة الجانب، وتستطيع حماية الساحل ؛ فاختار الأغالبة مدينة سوسة المفتوحة على البحر لتكون مرفأ حربيا لمدينة القيروان[٧٦].

ورغم أنَّ هناك نوعين من القرصنة واحدة خاصة وأخرى رسمية، إلا أنَّهما اتَّفقتا في مجالين من العمل، اهتمت أولاهما بالإغارة على السفن التجارية في عرض

البحر، واستيلاء القراصنة على السفن بكل ما عليها من بضائع وبشر[٧٧]، واختصت الأخرى بعمليات الغزو الفوضوي للسواحل[٧٨]، ويرى البعض[٧٩] أن ظهور هذه العمليات القرصانية الخاصة (piracy) في غربي المتوسط بدأ مع القرن ٢هـ/٨م، ثم تصاعد قدرا وأثرا خاصة في كل من منطقة شمالي أفريقيا والأندلس، ويرى لويس[٨٠] أنَّ أساطيل الأقاليم الطرفية من العالم الإسلامي؛ مثل أساطيل سرقسطة (Saragossa) في الأندلس وبلرم (Palermo) في صقلية كانت أقرب ما تكون إلى سفن قراصنة معظمهم من المغامرين المسلمين، ومن المسيحيين الذين تحوَّلوا عن دينهم، وانصب غرض هذه الجماعات على النهب والغنيمة، ويعتمد في ذلك على قول ابن حوقل (ت القرن ٤هـ/١٠م) في وصفه لميناء بلرم في صقلية أواخر القرن ٤هـ/ ١٠م، وهو قول أكد به لويس ما تحاول الدراسة درأه من تحيز وتعصب؛ إذ حاد تماما عن ما يعنيه ابن حوقل إلى معنى آخر انضم به لويس إلى أهل التحيز من الطرفين والبعد عن الموضوعية والمنهجية إذ كان ابن حوقل يتحدث عن سكان الرباطات التي اعتبر لويس سكانها في عداد القراصنة[٨١].

أثارت عمليات قراصنة السواحل الرُّعب بين سكان سواحل المتوسط، وكان لهذه العمليات أثر عظيم على الحياة في حوض المتوسط؛ فعندما تنشط القرصنة ينعدم الأمان بين سكان السواحل، حيث يتم سلب كل ما تمتد إليه الأيدي، فضلا عن الأسر لكل من يقع في أيدي القراصنة، ويصبح منذ تلك اللحظة عبدا يباع في أماكن الطلب على العبيد[٨٢]، أو أن يدفع الأهالي الفدية لضحايا القراصنة لتحريرهم من العبودية[٨٣]، وكان أحد الأهداف الأساسية لعامة القراصنة الحصول على العبيد[٨٤]؛ فعلى الساحل الشمالي للمتوسط كان القراصنة المسلمون وبالتحديد الأندلسيون يأسرون السكان ويبيعونهم عبيداً في الأندلس[٨٥]، وعلى الساحل الجنوبي كان القراصنة الأوربيون يغيرون على سكان الساحل المسلمين يسلبون السكان ويأسرونهم ويحولونهم إلى عبيد[٨٦] أمَّا إذا كانت القرصنة في عرض البحر ضد المراكب التجارية، فيصير كل المسافرين عليها والطاقم معهم أسرى إلى أن يتم

فداؤهم[٨٧]، ويرى (Goitein)[٨٨] اعتماداً على المصادر الأدبية، وما ورد في خطابات الجنيزا أن متوسط الفدية بالنسبة للمسلم والمسيحي واليهودي على حدٍ سواء كان ١٠٠ دينار لكل ثلاثة أسرى، ويرى آخر[٨٩] أن متوسط فدية الأسير من ١٥–٢٠ دينارا، ولم يكن هذا بالمبلغ الزهيد الذي تستطيع الأسرة تدبيره، وإنما كان مبلغاً يكفي لإعالة أسرة لمدة أربعة شهور، ويبدو أن قيمة الفدية قد اختلفت حسب الدين والجنس والمجهود الذي بذل في عملية الأسر والمفاوضات بين الأهالي والقراصنة، ويقترب هذا الرقم من فدية أسرى الحرب المسحيين التي فرضها صلاح الدين الأيوبي عليهم حينما استرد بيت المقدس، حيث كانت فدية الأسير النصراني عشرة دنانير وخمسة للأنثى[٩٠]، ولم يكن ذلك المبلغ قاعدة عامة إذ كانت هناك استثناءات مثل إهداء الأسير أو ارتفاع السعر بسبب قيمة الأسير، إذ وصلت فدية البعض منهم إلى ١٠٠ قطعة من الذهب في ثلاثينيات القرن ١١م[٩١].

لم تكن القرصنة ومهاجمة السفن في البحر وأسر من فيها ثم المساومة على فدائهم أمراً لا دخل للملوك والحكام فيه، نصارى كانوا أم مسلمين، ولم يكن هؤلاء وأولئك ليهتموا بنزول القراصنة على سواحل أراضيهم، إلا إذا ما اتسم هذا النزول بخطر صريح على موانئهم؛ لذلك حصنوها وأقاموا المحارس التي يسهر عليها حرس حكومي[٩٢]، ووقع عبء مدافعة القراصنة عند النزول على ساحل القرى والمنازل على كواهل سكان السواحل أنفسهم؛ فكان عليهم أن يقيموا ما يلزم للحراسة والحماية التي اتخذت أشكالا متعددة منها إنشاء المراقب العالية لكشف المقبل من البحر على مسافة كافية للاستعداد له، أو بنقل قُراهم ومساكنهم إلى المرتفعات القريبة من الساحل. ولم يكن ذلك وقفا على أهل ديانة بعينها، وإنما قام به أهل السواحل النصرانية والإسلامية على حدٍ سواء[٩٣].

اعتبرت دساتير مارسيليا وبيزا والبندقية والقوانين البحرية لمملكة بيت المقدس الصليبية خسارة الشحنة نتيجة القرصنة مثل خسارتها نتيجة تحطم السفن بسبب الظروف الطبيعية، وجعلت الوكيل في العقد التجاري حراً من كل التزام تجاه موكِّله

الذي أمدَّه برأس مال الرحلة(٩٤)، بينما تركت هذه الأمور في الشمال الأفريقي لتقدير أصحاب الفُتيا(٩٥) ؛ حيث تثبت النوازل الفقهية وقوع مراكب التجار المسلمين في المتوسط في أيدي اللصوص والقراصنة، ومن هنا يأتي السؤال عن كيفية محاسبة أصحاب السفن عن الإيجار المستحق عليهم وعن التزام الوكلاء ؛ مثل ما ورد في نوازل أصبغ "، قيل أرأيت إن كانت الريح غير غالبة لهم، ولكن ردهم فزع اللصوص أو الروم" (٩٦).

يرفع الاضطراب السياسي وغزو الأراضي أو الإغارة عليها عادة من أجور النقل، وكذلك على إبحار السفن التجارية، فلم تعد تبحر إلا في جماعات، فعلى سبيل المثال نتيجة عدم الاستقرار في إفريقية الذي سببه دخول بني هلال وسليم إلى البلاد سنة٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م ظهر القراصنة على السواحل المغربية، ومن ثمّ زاد أصحاب السفن التجارية من الحماية ممَّا رفع أسعار النقل البحري، كما كانت الإتاوة التي تدفع لقراصنة جزيرة جربة هي الأخرى تُضاف على أجرة النقل، وكانت المنطقة فيما بين برقة وتونس مسرحاً لعمليات القراصنة في ذلك الوقت ؛ ممَّا اضطر مُلَّاك السُّفن إلى دفع الكثير لحماية الشحنات التي تحملها سفنهم(٩٧).

انتظم التجار في قوافل تجارية خوفاً من القراصنة، فقد كان التجار في رحلتهم من أوربا إلى فلسطين والتي يحملون فيها سلعاً ثمينة يفضلون السَّفر فيما يسمَّى بالقوافل البحرية التي تتضمن عدداً كبيراً من السفن، يمكن أن نطلق عليها لفظ أسطول ؛ لأنَّها تكفل لهم أمناً من غارات القراصنة، وكانت تتم في رحلتين فقط خلال العام: الأولى في الربيع والأخرى في الصيف(٩٨)، وتفادياً لخطر القراصنة كان التجار يسلكون طرقاً أكثر أمناً، ففي خطاب من وثائق الجنيزا يعود إلى منتصف القرن ١١م أرسل من أمالفي إلى المهدية بتونس يروي فيه التاجر اليهودي أنَّه سافر من مصر إلى أمالفي عن طريق القسطنطينية حاملاً بضائع تتكون من فلفل ولبان لإتقاء خطر القراصنة، حيث وصل في ٧٠ يوماً، وينعى فيه حظَّه على هذا التأخير الذي تصادف مع وصوله حالة من الفوضى السياسية أدَّت إلى توقُّف الأعمال التجارية(٩٩).

حصن روم صقلية جزيرتهم ضد هجمات والي إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الذي غزا صقلية سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م وعاد محملا بالغنائم والسبايا (وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة (في موسم إبحار التجارة) وتذبُّ عنها، وربما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم)[١٠٠]، وكان رد الفعل من بحارة شمالي أفريقيا هو القيام بأعمال قرصنة في أواخر القرن الثاني الهجري ضد السفن التجارية الأوربية، وأثناء قيامهم بأعمال القرصنة ساعدوا أمويي الأندلس في القيام بسلسلة من الغارات على كورسيكا وسردينيا وجنوبي إيطاليا عام ١٩٠هـ/٨٠٥م، ويرجّح أحد الباحثين العرب أن العون من الشمال الأفريقي قدم من قبل الرستميين، وليس من الأغالبة أو الأدارسة نتيجة العداء السياسي بينهم وبين أمويي الأندلس[١٠١]، ويصف هايد قراصنة المسلمين في الفترة الباكرة من تاريخ الإسلام فيقول: "كانت السفن الإسلامية ترسو على سواحل اليونان وإيطاليا وفرنسا، لم يكن النازلون منها تجارا مسالمين، ولكن شراذم من جند وقراصنة يحرقون ويدمِّرون كل شيء"[١٠٢]، الأمر الذي جعل المدن التجارية الإيطالية تتعاون معهم خلال القرن ٣هـ/٩م، حيث أصبحت هذه المدن ملاذاً لقراصنة شمالي أفريقيا، وعقدت معهم أحلافاً، واشتركوا معا في بعض الحملات وتقاسموا الأسلاب[١٠٣]، ويشير هايد إلى هذا التعاون خاصة مع نابولي[١٠٤].

إزاء هذا التعاون بين المدن الإيطالية وبحارة شمالي أفريقيا سعت صقلية إلى السير في الاتجاه نفسه، حيث تشير اتفاقيات الهدنة التي عقدت بين الأغالبة وحكام صقلية البيزنطيين في عامي ١٩٠هـ/٨٠٥م و ١٩٨هـ/٨١٣م إلى حرية التجارة والتجار في التنقل بين الجانبين في كل من صقلية وموانئ إفريقية، وعلى عدم التعرض للمراكب التجارية الأغلبية المتجهة إلى صقلية، وتنص الاتفاقيات أيضاً على ضمان أمن المسلمين في صقلية، وتبادل الأسرى[١٠٥]؛ وتعد هذه الاتفاقيات دليل حرص الحكام على استمرار الاتصال التجاري الذي لم ينقطع مع صقلية مفتاح أوربا[١٠٦].

لم يراعِ حكام صقلية هذه المعاهدات، أو أنَّ هذه الاتفاقيات لم تكن مُلزمة

لقراصنة الجزيرة، بدليل أنه قبيل فتح الأغالبة لجزيرة صقلية كان هناك أسرى من المسلمين لدى روم صقلية بشهادة قائد البحرية فيمي[١٠٧]، بل إن فيمي نفسه قام بعمليات قرصنة على سواحل إفريقية ونهب الكثير منها، وأسر من أهلها وخاصة من التجار قبل أن ينقلب على سيده حاكم صقلية[١٠٨]؛ إذ يذكر أن قسطنطين حاكم صقلية أرسله سنة ٢١١هـ/٨٢٦م على رأس أسطول؛ فغزا إفريقية (وأخذ من سواحلها تجاراً ونهب وبقي هناك مدة)[١٠٩]، ثم تمرَّد فيمي على قسطنطين، وحاول أن يقصيه ليحل محله، وحين باءت محاولته بالفشل اضطر إلى اللجوء إلى دولة الأغالبة سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م وحث واليها زيادة الله بن الأغلب على غزو صقلية.

حاولت الدولة البيزنطية بعد هزيمة أسطولها في صقلية وفقدانها الجزيرة أن تمارس القرصنة الرسمية ضد الأغالبة حكام الجزيرة الجدد، حيث استولى أسطول الإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس في عام ٢٦١هـ/٨٧٩م على عدد من المراكب الأغلبية التي كانت تحمِّل زيت الزيتون في طريقها إلى المدن الإيطالية، وذلك في مهمة لدعم مركز بيزنطة في المياه الإيطالية؛ ممَّا أدَّى إلى خفض سعر الزيت في القسطنطينية، وينم ذلك عن ضخامة كمية الزيت، ومن ثمّ عدد المراكب التي تحمله[١١٠]، وكان ردُّ فعل الأغالبة أن عقدوا تحالفاً في سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م مع أمراء سالرنو ونابولي وجايتو وأمالفي، واشتركوا معاً في نهب الجنوب الإيطالي[١١١]، وأغار المسلمون على الساحل مابين جنوة وبيزا، وضيَّقوا على النشاط الاقتصادي لمدن شمال إيطاليا، وعانت المدن الساحلية كثيراً من هجماتهم، وذلك بسبب تدمير التجارة ذات الأهمية القصوى في اقتصادياتهم؛ لأنَّها كانت تمثِّل الهدف الأساسي لغارات المسلمين، وكانت سفنها تمثِّل هدفاً خاصّاً للقراصنة المسلمين[١١٢]، ويرى كروجر[١١٣] أنَّ هجوم المسلمين على المدن الإيطالية في تلك الفترة؛ هو مجرد قرصنة بسبب أنَّ قوتهم البحرية كانت مشغولة في مناطق أخرى.

انقض القراصنة النورمان على مواني غربي الأندلس وشمال غربي أفريقيا عدة مرات في القرن ٣هـ/٩م، وهذا يفسِّر وصول نقود عربية في هذه الفترة الباكرة

إلى الشمال الأوربي[١١٤]، وتعرضت منطقة العدوة بين الأندلس والمغرب الأقصى لغاراتهم المتكررة وخاصة مدينة نكور التي نهبوها سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م وامتدَّت أعمال النَّهب والسَّلب من قبلهم إلى إشبيلية (Sevilla) بالأندلس، وإلى كل المناطق التي خلت أو كادت من الحراسة والمدافعة[١١٥]، وحرصوا على الابتعاد عن جميع المناطق التي تملك أساطيل حربية قوية ؛ تستطيع بواسطتها أن تعترض عمليات سلبهم ونهبهم ؛ لذلك نجدهم يبتعدون عن الساحل الأندلسي بين دانية (Denia) وطرطوشة (Tortosa)، وساحل إفريقية حيث الأسطول الأغلبي، ثم صقلية وجنوبي إيطاليا[١١٦]، وعندما انحرف مركبان من مراكبهم إلى منطقة باجة (Beja) التي استعدت بمراكب معدة لمقاومتهم وقع من كان بها أسرى، ونهب ما فيهما من ذهب وفضة وعدة[١١٧]، نبه هذا الأمر الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م) إلى الاهتمام بالبحرية، كما أدت السيطرة على ميورقة (Mallarca) أكبر جزر البليار (الجزائر الشرقية) سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م إلى تأمين المنطقة الواقعة بين العدوتين من القراصنة النورمان وغيرهم إلا من حالات القرصنة الخاصة[١١٨].

لعبت المصادفة في تحويل عدد من النورمان عائدين من زيارة بيت المقدس سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م في طريقهم إلى نورمانديا إلى قراصنة ؛ حيث تصادف نشوب معركة بين المسلمين والمسحيين في صقلية، انضم النورمانديون إلى جانب المسيحيين فنجدوهم، وفور عودتهم بغنائم الحرب وهدايا مسيحيي صقلية إلى بلادهم ؛ أغرى الكسب شباب نورمانديا وتحمسوا للخروج في جماعات، يجوبون شواطئ صقلية وما جاورها، واحترفوا القرصنة، ونهبوا الإيطاليين واليونانيين والمسلمين على حدٍّ سواء، وتمكَّنت جماعة منهم من إنشاء مركز لها في بعض نواحي الجزيرة، واتخذته وكراً لعملياتها، ولكنَّ إقامتهم به لم تطل ؛ حيث طردهم المسلمون منه سريعا[١١٩].

وعندما احتلَّ النورمان صقلية استولوا على بلرم (Palermo)؛ وبقيت مازر (Mazzara) بأيدي المسلمين لفترة، فرض القراصنة النورمان بالتعاون مع نظرائهم المسلمين على كل مهاجر من مازر إلى شواطئ إفريقية ثلاث أونصات (أوقيات) من

الذهب أو أكثر[١٢٠]، ونشط قراصنة صقلية بعد استيلاء النورمان عليها، حيث كانت مراكب روجار صاحب صقلية تصل بالقرب من السواحل الإفريقية، وتكدِّر وصول التجارات إليها، وممَّا يذكره ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)[١٢١] في هذا الشأن: استيلاء مراكب روجار على بعض السفن القادمة من مصر إلى الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس؛ صاحب إفريقية، بالرغم من اتفاقية الهدنة المُبرمة بين الطرفين، الأمر الذي جعل الحسن يلحُّ على تجديد الهُدنة رغبة منه في وصول الغلال من صقلية إلى إفريقية؛ "لأنَّ الغلاء كان فيها (إفريقية) شديداً، والموت كثيراً"، والغالب على الظن أنَّ خرق الهدنة من جانب روجار جاء بهدف فرض شروط جديدة في بنود الهدنة بين الطرفين ليحصل من خلالها على مميزات على الساحل الإفريقي، وأذعن الحسن للشروط الجديدة؛ بسبب الظروف التي كانت تمر بها بلاده[١٢٢]، كما تعرضت السفن التجارية القادمة من تونس إلى صقلية لقرصنة ابن الثمنة[١٢٣] أحد القواد المسلمين الذي استقوى بالنورمان على نظرائه من حكام طوائف صقلية، حيث يرصد خطاب جنيزا مهاجمة ابن الثمنة مركبا تونسيا بالقرب من صقلية، واستيلاءه على كُلِّ حمولة المركب من المنسوجات بينما ترك حمولتها من زيت الزيتون، بسبب ضخامة الحمولة[١٢٤].

وكانت هناك عمليات قرصنة ساحلية من جانب سكان إفريقية على سفن الروم في المنستير، حيث استحلُّوا سبيهم وأخذ أموالهم؛ "لأنهم لم يكن بينهم وبين المسلمين عهد ولا هدنة"[١٢٥]، وإن كانت هذه الحادثة قد جوزها الفقهاء من خلال اغتنام أموال أهل الكتاب الذين ليس لهم عهد ولا أمان لدى المسلمين؛ فإن هناك حادثة قرصنة أخرى من جانب المسلمين ضد إخوانهم من أهل الأندلس؛ وردت في ترجمة الفقيه المالكي عبد الله بن أبي المهزول (ت٣٣٩هـ/ ففي بنزرت اشتكى بعض السكان إليه من أولئك الذين يرصدون المراكب العابرة من الأندلس إلى مصر، ويعتدون عليها[١٢٦].

اهتم الفاطميون بقواتهم البحرية وبلغت شأوا كبيرا مكنهم من عقد المعاهدات بينهم وبين قراصنة المدن الإيطالية، ووضعوا أنفسهم في مكانة عالية بلغت حد

المباهاة عندما تمكنوا من استرجاع عدد من الأسرى المسلمين، وعلى الرغم من تلك العلاقة لم تسلم مراكب الفاطميين التجارية من هؤلاء القراصنة عندما تعرَّض مركب يسمي (الحمَّال) كان يحمل خشبا من غابات صقلية أو حبوبا لعملية قرصنة، لكنه عاد بمقتضى تلك المعاهدات(١٢٧)، ورغم قوتهم تلك تعرَّضت بعض سفنهم التجارية في المتوسط لقرصنة رسمية من قبل البحرية الجنوية والبيزية، وأُهين مَنْ فيها من رعايا الدولة الفاطمية(١٢٨)، أما القراصنة البيزنطيون فكانوا يترصدون المراكب التجارية الفاطمية في مناطق طرفية ويستولون عليها بما تحمله ؛ إذ تعرضت إحدى سفن الفاطميين التي كانت في طريقها من المهدية إلى الإسكندرية عند جبل برقة لقرصنة البيزنطيين، وأجبروها على الاتجاه إلى بلادهم، وبينما هم في طريقهم التقت بهم مراكب من مسلمي صقلية، فأنقذوا السفينة الفاطمية منهم، وأتوا بها إلى صقلية(١٢٩)، ويرى لويس(١٣٠) أن بلاد المغرب أَثْرَتْ من أعمال القرصنة والتجارة على زمن الفاطميين ؛ فقد كانت السُّلطات الفاطمية تدعم أعمال القرصنة، وتُحصِّل ضريبة قدرها العُشْر من أسلاب حملات القراصنة من أهل إفريقية نظير هذا الدعم(١٣١)، ومما يؤكد دعم الحكومة الفاطمية للقراصنة إشارة وردت في ترجمة الفقيه المالكي أبي جعفر القمودي (ت٣٢٤هـ/٩٣٦م) الذي لجأ إليه تجار من الأندلس وصلوا على متن مركب إلى المهدية " فغصب متولي الموضع رحلهم " ليدعوا لهم بأن يرد الله عليهم رحلهم ولم يلجأوا إلى الحكام، فالقرصان من أهل الحكم والتجار تابعون للخلافة الأموية بالأندلس التي تناصبهم العداء(١٣٢).

وبعد خروج الفاطميين من المغرب إلى مصر تولى بنو زيري الحكم نيابة عنهم، وكان أمير برقة في سنة٤٤٣هـ/ ١٠٥١م جبارة بن مكثر من أهم الولاة الذين عملوا في القرصنة، حيث ورد اسمه في أوراق الجنيزة على أنَّه قُرصان مريع، وحامل للبضائع وحام من خطر القراصنة الآخرين(١٣٣)، فقد كانت شواطئ الشمال الأفريقي فيما بين برقة وطرابلس خلال القرن ٥هـ/ ١١م كارثة على التجارة البحرية المصرية المُتَّجهة إلى المغرب(١٣٤)، واستخدم الفاطميون القراصنة في برقة لمعاقبة

السُّنة في غربي الشمال الأفريقي بالطريقة التي تم بها توظيف عرب بني هلال وسليم ؛ لتخريب المنطقة التي كانت مُزدهرة بعد شَقِّ المُعِزّ بن باديس الصنهاجي (٤٠٦-٤٥٣هـ/ ١٠١٥-١٠٦١م) عصا الطاعة على الفاطميين.

وتنطق أوراق الجنيزا من خلال خطاب من أحد ضحايا جبارة ؛ يوضّح الخطاب تجبر جبارة وفداحة صنعه ؛ عندما هاجم إحدى السفن التجارية " وأفرغ جبارة حمولة المركب "، وقد كانت حمولة المركب في العصور الوسطى تقدر بستين طنا[١٣٥] كما توضِّح هذه الوثائق أن جبارة ووالده وأقرباءه وعدداً آخر من قراصنة سكان برقة العرب ؛ ظهروا في وقت مبكر من القرن ٥هـ/ ١١م، حيث تعود الوثائق إلى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م، ٤١٩هـ/١٠٢٨م، ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م، هذه الوثائق توضح مدى نشاط هؤلاء في مهاجمة السفن البيزنطية، كما شجعهم الفاطميون على التقدم غربا ومهاجمة تجار بني زيري ؛ لضرب تجارة إفريقية التي شقت عصا الطاعة عليهم، وساعدهم أيضاً ضعف البحرية في المنطقة ؛ نتيجة انتصار البحرية البيزنطية على المسلمين في صقلية وإفريقية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن ١١م، وفي سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١-١٠٥٢م تحوَّل جبارة بولائه من الفاطميين إلى المعز بن باديس الصنهاجي حاكم تونس، فاتجه نشاطه البحري شرقا إلى مصر وحاصر الإسكندرية براً وبحراً، وبلغت شهرته الداني والقاصي، وعرفوا مدى قوته فدرأ أصحاب السفن والتجار خطره بأن استخدموه كحام لهم ضد القراصنة الآخرين ؛ ففرض عليهم إتاوات ثقيلة تسمى (غفارة) ؛ لذلك يصفه Goitein بالحاكم صاحب الولاء المتقلب، فمرة يعمل مع الفاطميين، وأخرى ضدهم، ونصيرا للحرب المقدسة، وقاطع طريق، وقرصاناً ضد المسلمين، والحامي ضد القرصنة، والرُّبان البحري[١٣٦].

وأشهر حكام بني زيري الذي اُتُّهم بعمليات قرصنة هو تميم بن المعز (٤٥٤-٥٠١هـ) (١٠٦٢-١١٠٧م) فقد وصفه هايد بأنَّه قرصان ذائع الصيت أشاعت حملاته البحرية الرعب في أنحاء بعيدة من البحر المتوسط[١٣٧]، ويرى آخر : أن تميماً كان حاكماً ناشطاً أراد إنعاش ثروات الزيريين، من خلال تسخير كل

الإمكانيات لدعم هجومه البحري، كما شجَّع سفن المهدية في القيام بعمليات غزو ضد المراكب المسيحية[(١٣٨)]، وقد لجأ إلى هذا الأسلوب بعد غزو القبائل العربية لإفريقية ؛ حيث فرضت عليه الظروف الاقتصادية التوجه إلى البحر، فقام القراصنة الرسميون بدعم منه بمهاجمة تجارة بيزا وجنوة، فكانوا يخرجون من المهدية ؛ يسلبون ويأسرون السفن والتجار الإيطاليين، ممَّا دعا الأخيرتين إلى تجريد حملة على المهدية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م[(١٣٩)]، مكنتهم من فرض شروط سلام على دولة بني زيري في إفريقية ؛ ومن بين هذه الشروط الامتناع عن مواصلة عمليات القرصنة[(١٤٠)]، كما عملت الدولة الزيرية بإلحاح للقضاء على النشاط التجاري لإمارة بني جامع العرب التي قامت في قابس، والتي عقدت علاقات تجارية بحرية مع جيرانها بفضل بناء أسطول بحري علاوة على موقع إمارتهم الذي تميز بمميزات المدينة البحرية والصحراوية في آن واحد، حيث أرسل علي بن يحيى بن تميم بن المعز حاكم المهدية سنة ٥١١هـ/١١١٧م أسطوله لقطع الطريق على سفينة بني جامع والاستيلاء عليها في البحر[(١٤١)] وكان لدولة بني حماد هي الأخرى قراصنة رسميون ؛ ففي عهد العزيز ابن المنصور (٤٩٨هـ/١١٠٥م) وقع في أيدي القراصنة سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م بعض الرهبان الطليان الذين ردهم الأمير الحمادي بواسطة من ملك صقلية روجيه[(١٤٢)].

ويؤكد كثافة عمل القراصنة خلال القرن ٤ -٥هـ/١٠-١١م تكرار وقوع يهود في قبضة القراصنة أثناء رحلاتهم البحرية في المتوسط، حيث تورد وثائق الجنيزا معلومات عن أسر طبيب يهودي إيطالي ؛ أُسِرَ في البحر بواسطة المسلمين سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م، وتمَّ فداؤه في القيروان[(١٤٣)]، ويورد Mann[(١٤٤)] وفقاً لوثائق الجنيزا قصة أسر أربعة من كبار أحبار اليهود ؛ كانوا في طريقهم لجمع تبرعات للمدارس اليهودية في العراق ؛ في الثلث الأخير من القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري ؛ أثناء عودتهم من باري إلى بغداد عن طريق مصر، تم فداء أحدهم في الإسكندرية بواسطة إخوانه من اليهود، ونال آخر حريته في إفريقية بالفداء، ويحاول (Mann) أن يُلصق تهمة القرصنة هذه بأمير البحر عبد الله بن رماحس قائد البحرية

الأندلسية في عهد الخليفة الحكم المستنصر الأموي أثناء غزوه لطنجة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م، وهو قولٌ يُجافي الحقيقة، إذ لا يتَّسق أن يكون عبد الله بن رماحس في طنجة على المحيط الأطلسي؛ وفي الوقت نفسه يأسر علماء يهود في شرق إيطاليا(١٤٥)، علاوة على أن فداء أحد هؤلاء الأربعة تم في الإسكندرية وتم فداء الآخر في إفريقية، وكلاهما كان بعيدا كلية عن سلطة أمويي الأندلس كما لم يكن بينهما وبين الأمويين معاهدات في هذا المجال أو غيره.

تتحدث بعض الوثائق الإيطالية أيضاً عن فكِّ أسر ثلاثة من اليهود بالإسكندرية سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م؛ كانوا قد أُسروا في عرض البحر، واستولى القراصنة على سفينتهم، وباعوهم في عرض البحر إلى تجار أمالفيين بكمية من شراب الروم، وجلبهم هؤلاء التجار إلى الإسكندرية لبيعهم أو لفدائهم من جانب إخوانهم اليهود(١٤٦)، ويسفر هذا العمل عن تلك العلاقة التجارية فيما بين القراصنة - أيّاً كانوا - والتجار الإيطاليين؛ خاصة تجار أمالفي الذين كانوا يُبادلون أسرى القراصنة من اليهود، ثم ينقلبون إلى المجتمعات اليهودية في موانئ شمالي أفريقيا وطلب فدية لتسليمهم الأسرى؛ وهي عملية أسهل من التجارة في البضائع، وتعود عليهم بأرباح أكثر، فقد كانت هذه الصفقة رابحة جدّاً لتجار أمالفي الذين رأوا فيها فرصة استثمار مفيدة؛ فعملوا على توفير المال اللازم لمبادلة الأسرى من القراصنة، وكذلك وجدوها عمليات قليلة المخاطر، فهم في مأمن من عملائهم القراصنة، ويؤكد ذلك ما عكسته وثائق الجنيزا من أنَّ تاجرا من أمالفي باع ليهود الإسكندرية ثلاثة أسرى من الذين أُخذوا من مركب تعرَّض للقرصنة بواسطة البيزنطيين أو الإيطاليين الذين أتوا على كل ما فيه(١٤٧)، ويبدو أنَّ الوسطاء المسيحيين أيقنوا أنَّ المجتمعات اليهودية قد ترسَّخت لديهم تقاليد مُبادلة الأسرى، حيث أصبح هناك بندٌ ثابتٌ في ميزانية هذه المجتمعات لمُبادلة الأسرى، ولقد سمح التُّجار المسيحيون للمجتمع اليهودي بالوقت الكافي لتوفير الفدية؛ إذ لم يكن المبلغ الموقوف للفدية كافياً(١٤٨).

ومنذ نهاية القرن ٥هـ/ ١١م انتشرت دور صناعة السفن على السواحل

الأندلسية والمغربية في مرسي الخزر وبونة وبجاية، وبدأ القراصنة المحليون (pirates) المجهزون بالسفن تمشيط سواحل جزر البحر المتوسط والتجول فيه؛ بحثاً عن الغنائم[١٤٩]، ومنذ بداية القرن ٦هـ/ ١٢م سادت القرصنة بنوعيها كل البحر المتوسط، فلم تخلُ منطقة أو فترة زمنية منهما، ولم تكن هناك مدينة أو دولة أو شعب بحري لم يشارك بحارته في القرصنة، وكان القباطنة من جميع الأجناس يجوبون البحار في خدمة أي شخص يمكن أن يدفع لهم أو يرخص لهم بذلك[١٥٠].

# البحريون المسلمون في غربي المتوسط مجاهدون أم قراصنة؟

تحدَّثت المصادر اللاتينية والبيزنطية بإسهاب عن غارات البحريين الأندلسيين، ووصفت أصحابها بأنهم قراصنة يعملون لحسابهم الخاص، والواقع أن أعمال القرصنة في ذلك الوقت لم تكن قاصرة على القوى الإسلامية وحدها، بل كانت شائعة بين بحارة الدول والإمارات المسيحية الذين سبقوا في هذا المضمار والوثنيين من النورمانديين أيضاً، وتشهد الحوليات الأوربية بوضوح على أنَّ هؤلاء الأندلسيين قد ركبوا البحر، وعرفوا القتال فيه وحذقوه؛ منذ أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي(١٥١)، ويؤكد أحد المُحْدَثِين على أنَّ السبب في صمت المصادر العربية عن النشاط البحري الذي بدأه أهل المغرب ابتداء من أواخر القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري، هو أنَّ معظم هذا النشاط كان نشاطاً غير رسمي، أي أن أهل سواحل المغرب كانوا يقومون به لحسابهم(١٥٢)، وترجع بداية اشتغال الغُزاة البحريين المسلمين بأعمال الغزو والنهب، أو ما يسميه الغربيون بالقرصنة على سواحل إيطاليا وفرنسا الجنوبية، وجزر البحر المتوسط، مثل صقلية وكريت (إقريطش)، إلى عهد أمير الأندلس الحكم الربضي (١٨٠ – ٢٠٦هـ/٧٩٦–٨٢٢م)، وابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦–٢٣٨هـ/٨٢٢–٨٥٢م)، ولكن ينبغي الإشارة هنا إلى أنَّ أعمال هؤلاء الغُزاة لم تكن تتم بموافقة رسمية من حكومة قرطبة، خاصة أنهم أخرجوا من ديارهم مكرهين على أثر ثورتهم على الأمير الأندلسي الحكم الربضي فيما عرف في التاريخ الأندلسي بثورة الربض(١٥٣).

وصل بعض من غزاة البحر الأندلسيين إلى الإسكندرية واستولوا عليها سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م، ثم خرجوا منها تحت ضغط عبد الله بن طاهر قائد الخليفة العباسي المأمون (١٩٨–٢١٨هـ/٨١٣–٨٣٣م)؛ فاتجهوا إلى كريت، واستولوا عليها من أيدي البيزنطيين سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م(١٥٤)، وكذلك ساعدوا الأغالبة في

فتح صقلية ٢١٥هـ/ ٨٣٠م " إذ أقبل أسطول كبير من الأندلس خرجوا غزاة " بقيادة أصبغ بن وكيل الملقب بفرغلوش ونزل بصقلية[١٥٥]، شجعت النجاحات التي أحرزها هؤلاء إخوانهم من البحريين الأندلسيين على غزو السواحل الفرنجية وجزر البحر المتوسط، قبل وجود بحرية أموية في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وكان المركز الرئيسي لهم منطقة تقع على الساحل الشمالي الشرقي من الأندلس بين طرطوشة (Sortosa) وبلنسية (Valencia)، وكان يتزعمها في الغالب والي سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى الأندلسي، وفي منطقة أخرى على الساحل الجنوبي الشرقي عند الموقع الذي قامت عليه مرية بجانة (Pechina)، وأسس هؤلاء مدينة تنس على ساحل الشمال الأفريقي سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م، ومنهم من أسس مدينة وهران بالاشتراك مع قبيلتي نفزة وازداجة سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م[١٥٦].

يتَّفق المؤرخون القدامى على أنَّ هؤلاء البحريين الأندلسيين شاركوا بالمصادفة مع الأغالبة في فتح صقلية[١٥٧]، أمَّا المحدثون فقد اختلفوا في صدق نياتهم[١٥٨]، إذ يرى بعضهم أن أصبغ قائد البحريين لم يشترك في معارك صقلية رغبة في الجهاد ؛ بقدر طمعه في الرئاسة والمغانم[١٥٩]، ويرى كروجر[١٦٠] أن البحريين الأندلسيين الذين ظهروا بصورة غير متوقعة سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م للقيام بعمليات السَّلب ساندوا الأغالبة المُحَاصَرِين، وفي سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م شارك البعض منهم في إتمام فتح صقلية، ويرى فازيلييف[١٦١] أنَّ أسطول البحريين الأندلسيين جاء لنهب صقلية مستقلاً بعملياته، ولم يأتِ عونا لعرب إفريقية، ويرى آخرون أن أعمالهم لم تكن تتم بموافقة رسمية من حكومة قرطبة[١٦٢]، ويساوي أحد المحدثين النابهين[١٦٣] بينهم وبين قراصنة النورمان (الفيكنج Vikings)، كما يرى أنَّ الذين نزلوا صقلية ليسوا من أهل كريت، وإنَّما من أهل سواحل الأندلس الشرقية الذين اتخذوا من الغزو في البحر صناعة لهم، ويدلل على عملهم بالقرصنة " بأنهم استفاقوا على ما أنزله بهم الوباء من الخسائر (في صقلية)، ليجدوا أنفسهم قد انغمسوا في أمر ليس من شؤونهم بصفتهم باحثين عن المغانم والأسلاب ؛ وليسوا جنداً نظامياً فاتحاً "[١٦٤]، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن عذاري من أنهم ما لبثوا أن قفلوا راجعين إلى الأندلس[١٦٥].

من الصعب على معظم المؤرخين المحدثين المسلمين القبول بإطلاق لقب قراصنة على هؤلاء، وفي نفس الوقت أيضاً لا يمكن وصفهم بالمجاهدين، خاصة أنهم فقدوا الغطاء الشرعي من أمويي الأندلس، وليس لهم قبول لدى العباسيين، ويقومون بأعمالهم وفقاً لمصالحهم الخاصة، وبذلك ينقصهم إذن الإمام، أو طاعة الإمام في النفير إلى الحرب والجهاد(١٦٦)، فقد تبرَّأ منهم الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط عندما طلب منه الإمبراطور تيوفل الضغط عليهم لوقف غاراتهم البحرية ضد ممتلكاته، حيث قال في خطابه له الذي يرد فيه على طلبه : "ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ولا تصعب عن نكايتهم، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك" (١٦٧)، كما أنَّ الإمبراطور أوتو الكبير (٣٢٥-٣٦٣هـ/٩٣٦-٩٧٣م) إمبراطور الدولة الرومانية المقدَّسة تبادل الرسائل مع الخليفة ألأموي عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) بسبب الغارات البحرية التي شنها الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية دون أن تتوقف هذه الهجمات(١٦٨).

يرى بعضهم أنَّ هذه الأعمال تأتي في إطار أعمال القرصنة الحرة التي كانت شائعة في ذلك الوقت بين المسلمين والمسحيين على السواء(١٦٩)، ويقول لويس : إنَّ القراصنة العرب والمغامرين أحدثوا الكثير من التَّخريب في مدن غربي إيطاليا وفي جنوبي إيطاليا ووسطها، وامتدَّ تخريبهم فيما وراء الساحل، وذلك فيما بين عامي ٨٤٠،٨٨٦ م، ويرى آخر أن هذه جماعات مجاهدة تغزو سواحل البلاد النصرانية، وترد أذاها عن بلاد المسلمين، ويرد على قول المصادر اللاتينية عن كونهم قراصنة بأنه لم يكن في الواقع كذلك تماماً(١٧٠)، ويفسر ذلك بقوله : ربما كان ذلك صحيحاً من بعض الوجوه - عمل المسلمين بالقرصنة - لأنَّ الأساطيل الإسلامية التَّابعة للدويلات المستقلة في غربي العالم الإسلامي قصرت جهدها على الدفاع عن الشواطئ، أمَّا الغارات فكانت تقوم بها في الغالب جماعات تعمل لحسابها الخاص، هدفها الإغارة على الشواطئ الأوربية والفوز بالغنائم، ومن ثَمَّ كانت أعمالاً قريبة من القرصنة ؛ ومن هنا نفهم السبب في أنَّ المراجع العربية لا تذكر شيئاً عن هذه الأعمال(١٧١).

ويسمي مستشرق آخر[١٧٢] هذه الجماعات بالبحرية الخاصة التي تعاونت مع البحرية النظامية للدول التابعة لها، ووفقاً للمفاهيم المُعاصرة في العلاقات الدولية يطلق على مثل هذه الأنشطة قرصنة، لكن بعض المسلمين يعتبرونهم مجاهدين ينفِّذون أحد واجبات الدين الإسلامي، ويرى أنَّ الجزء الأكبر من الحرب على الشواطئ الإيطالية كانت في مجملها حالات مُبادرة شخصية ؛ استمرت مع الهيمنة العربية على المتوسط، ويتفق آخر معه في الرأي، حيث يفرق بين البحرية الخاصة وبين الأساطيل الرسمية للدولة الإسلامية[١٧٣]، وينطبق هذا الرأي على البحريين الأندلسيين أيام الخليفة الأموي الناصر ؛ الذي شهدت فترة حكمه تعاونا بين البحرية الخاصة والبحرية النظامية خاصة في ألمرية (Al mria)، حيث اشترك البحريون مع الأسطول الأندلسي في غزواته برسم الجهاد على سواحل الفرنجة، كما تولى أحد زعماء البحريين ويدعى محمد بن رماحس قيادة الأسطول البحري في عهد الخليفة الأموي الناصر[١٧٤]، ومن ثم كانت مسألة البحريين في ميناء المرية منظمة ولهم زعماء، وحاجة الأسطول لهم في غزواته برسم الجهاد على سواحل الفرنجة كانت لخبرتهم في المنطقة في عملياتهم الخاصة (Pirates) ؛ خاصة في فترات تمزُّق وحدة الأندلس السياسية، كما أن قوة شكيمة الناصر وهيبته لدى هؤلاء البحريين جعلتهم يلتزمون بالاتفاقيات التي يبرمها مع غيره من الحكام والتجار ؛ فقد أبرم الناصر عددا من الاتفاقيات التجارية تتضمن بنودها عدم تعرض القراصنة المسلمين للسفن التجارية، مثلما حدث مع شنير حاكم برشلونة (Barcelona)[١٧٥]، وكذلك اتفاقياته مع تجار أمالفي الذي أمَّنهم الناصر، فصارت تجارتهم تصل إلى الأندلس بعد انقطاع[١٧٦].

## سلطنة باري[١٧٧] (٢٢٧هـ/٨٤١م - ٢٥٨هـ/٨٧١م)

تعددت الاجتهادات حول حكام باري وأصولهم وهويتهم السياسية ؛ بيد أنها كلها لا ترقى إلى مصاف الحقيقة التاريخية لغياب النصوص التي تؤكدها، لكن المؤكد أنهم كانوا يعملون لحسابهم الخاص، فلو أنهم كانوا تابعين للعباسيين أو للأمويين في الأندلس لوجدت أعمالهم صدى في كتابات المعاصرين في ذلك الوقت من المُوالين للفريقين، وغموض أصل حكامها هو الذي يرجِّح فرضية كونهم قراصنة[١٧٨]، وأيّاً كان أصلهم وتبعيتهم فهم في هيامهم في المتوسط بحثاً عن ملاذ وجدوا ضالتهم في باري التي أهلها موقعها الجغرافي أقرب ما تكون استراحة قرصان لمدة ٣٠ سنة أو يزيد، وتحكَّموا بذلك في مدخل البحر الأدرياتي، والمرجَّح أنهم بجانب أعمال القرصنة قاموا – في بعض فتراتهم – بعمليات غزو جهادية ضد الأقاليم الإيطالية المجاورة، حيث فتح أحد زعمائهم المفرج بن سلام أربعة وعشرين حصناً زمن الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢–٢٤٧هـ/٨٤٧–٨٦١م)[١٧٩].

عجَّل التنافس والتَّحاسد من أجل السلطة بقتل الزعيم المفرج بن سلام وتولية آخر يدعى سوران ؛ الذي أسمته المصادر الغربية (سلطان)، وطلبهم التقليد من المتوكل العباسي هو نوعٌ من الغطاء الشَّرعي لعملياتهم، كما أنَّ تجارتهم في الرَّقيق على مستوى عالٍ ترجح عملهم في القرصنة[١٨٠]، ويقول لويس[١٨١] : إنَّ سلطان باري كان حاكماً قرصاناً، لذلك أصبح الطريق من جنوبي إيطاليا إلى الشام عن طريق الإسكندرية محفوفاً بمخاطر القراصنة المسلمين مشيراً إلى ما تمثله قرصنة باري من خطورة على الخط التجاري البحري المختصر، ولجأت التجارة إلى طرق أكثر أمنا مع أنها طويلة للوصول إلى الشام وشرقي المتوسط من خلال الدوران حول جنوب بلاد اليونان، عبر كريت، وعلى طول سلسلة الجزر حتى جنوبي تركيا أو قبرص، ثم ساحل بلاد الشام ؛ لذلك فإن جزءاً كبيراً من السفن المتجهة من جنوبي إيطاليا

صوب الإسكندرية كانت تمرُّ بموانئ الشام؛ خاصة عكا الأمر الذي يزيد في مدة الإبحار وفي تكاليف الرحلة[١٨٢].

أما من يريد السفر من جنوبي إيطاليا إلى الإسكندرية من خلال الخط البحري المختصر فعليه أن يحصل على حماية سلطان باري؛ لذلك لجأ الحجاج النصارى إليه لحمايتهم خلال سفرهم إلى القدس عن طريق الإسكندرية؛ ممَّا يؤكد على هيمنته ونفوذه على الطريق البحري إلى الإسكندرية والشام، وتزويدهم بخطابات تزكِّيهم لدى حكَّام مصر؛ هو نوعٌ من الحماية حتى خارج منطقة نفوذه؛ لكن هذه الخطابات لم تعفهم من دفع إتاوة قدرها ١٣ ديناراً عن كل حاج لحاكم الإسكندرية، وإتاوة أخرى لربَّان السفينة الذي رفض نزولهم إلى الميناء إلا بعد دفع ٦ أوري (Aurei عملة ذهبية أوربية)[١٨٣]، وهو فيما يبدو كان نظاماً لتبادل المنافع بين العاملين في المجال البحري.

ويرى أحد المحدثين[١٨٤] أن المفرج بن سلام كان يعمل لحسابه الخاص، وأن هؤلاء الغُزاة كانوا يمثِّلون طلائع القوات النِّظامية، وهو قولٌ مردود عليه؛ لأنَّ هؤلاء لم يتبعوا لسلطان أحد طالما بقوا في باري؛ حتى يكونوا في مقدمة قواتهم، ويصفهم أيضا بأنَّهم انتابتهم موجة من الحماس من أجل الجهاد الذي لا ينتقص من قدره ما صاحبه من الرغبة في المغانم الثمينة والسبي الجميل، وقد يكون هذا تجميلاً لصورة من دخلوا باري بخلاف وصفه الصريح للبحريين في صقلية بأنهم قراصنة[١٨٥].

## فراكسينيتوم (Fraxinetum)

تحدثنا المصادر الغربية وفقاً لترجمة الأمير شكيب أرسلان[١٨٦] عن عشرين ملَّاحاً عربيّاً ركبوا مركباً خفيف القلع من سواحل الأندلس، قاصدين سواحل بروفانس جنوبي فرنسا سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م؛ وعندما وصلوا خليج جريمو Grima، ويقال له أيضاً سانت تروبيز Saint-Tropes؛ صعدوا إلى البر، ولما وصلوا إلى قمم جبال تلك المنطقة التي تشرف من جهة على البحر المتوسط، وتسيطر من جهة أخرى على جبال الألب استقروا عليها، وما أن وطأ هؤلاء القراصنة – حسبما تذكر الرواية الفرنسية – تلك الأرض حتى أرسلوا إلى الأندلس وإفريقية يستمدُّون إخوانهم ويرغبونهم في الانضمام إليهم، كما انضمَّ إليهم بعض الجياع من أهل البلاد[١٨٧]، وبدأوا العمل في مكانهم، فما مضت عدة سنوات حتى امتلأت تلك الأرض بالحصون والمعاقل، وكان أهم تلك الحصون الحصن المسمى فراكسينتوم[١٨٨]، والذي يسيطر على بحر (Ligurian)، وقد حلت محله في القرن ١١م مدينة (لاجارد فرانيت – فرينيه)، لعلهم استعانوا في هذا العمل برجال من جهات أخرى[١٨٩].

اتخذ هؤلاء هذا الحصن مركزاً وتقدَّموا في داخل البلاد لمدة تقرب إلى قرن من الزمان ٢٧٥هـ/٨٨٨م – ٣٦٥هـ/٩٧٥م، وبعد استيطانهم في المنطقة هاجمهم الأسطول البيزنطي بعد عام ٢٧٥هـ/٨٨٨م بعد تصديهم لتجارة المدن الساحلية للغرب الإيطالي؛ مثل: أمالفي جايتا ونابلي وسلرنو، ولكن الأسطول عجز عن تحقيق أغراضه بالقضاء عليهم، وقطعوا الطريق على الحجاج المسيحيين الذين كانوا يجتازون جبال الألب ذاهبين إلى روما، ففي سنة ٣٧٢هـ/٩٧٢م أسر هؤلاء المسلمون الراعي أو رئيس دير كولوني القديس مايولوس (Maiolus)، ورفاقه من الحجاج في ممر القديس برنار العظيم، ودفع الكولونيون الفدية التي طلبوها، وكانت كل سفينة جازفت بالخروج من أحد الثغور في الجنوب الشرقي لفرنسا، والاتجاه إلى

الشرق الأدنى تقع في قبضتهم حتى قبل أن تصل إلى أعالي البحار، حيث سيطر المسلمون على الجزر كلها تقريباً، وأنشأوا أوكاراً للقرصنة على حد تعبير هايد[١٩٠] ؛ ووفَّر جبل مجاور للموقع يعرف اليوم باسم جبل الـ «مور Maures» (وهو الاسم الذي كان يطلقه الأوروبيون على عرب الأندلس) حائط صد في منظومة الدفاع ضد الهجمات البرية، ومع الوقت نمت هذه المستوطنة مساحة وسكاناً[١٩١].

زاد خطر البحريين في المنطقة ؛ ممَّا دعا الإمبراطور التيوتوني أوتو الكبير إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أن يرسل سفارة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م، يسأله فيها أن يبذل جهده لكفِّ أذى القراصنة الأندلسيين عن تلك المنطقة من شواطئ البحر المتوسط وغاراتهم ؛ على ما يلي هذه السواحل من بلاد غالة وشمالي إيطاليا وسويسرا[١٩٢]، وصار زعماء البلاد يتودَّدون إليهم، وتحاول كل فئة أن تجذبهم إلى نفسها[١٩٣]، ولم تقتصر عملياتهم على البحر فقط، بل امتدت إلى البرِّ عندما قطعوا الطريق بين فرنسا وإيطاليا، واحتلوا جميع مضايق جبال الألب، وقرَّروا رسوماً على المرور من تلك المضايق، وتسجِّل حوليات الأديرة وتواريخ البلدان الفرنسية ما أحدثه هؤلاء من تخريب للكنائس والأديرة[١٩٤]؛ بيد أن هذه الكنائس والأديرة كانت تصلح ما خربه هؤلاء لأنّها عادة ما تختزن الكثير من النفائس والأموال التي يمكن تسييلها في الحال ؛ لتعينهم على تأسيس حياة جديدة.

أغار هؤلاء البحريون الأندلسيون على مرسى مدينة فريجوس في مقاطعة الفار، ولاذ أهلها بالفرار وتركوها ؛ كجوف حمار – على حد تعبير المؤرخ ليوتبراند – فاضطر المسيحيون من سكان السواحل إلى أن يلوذوا بالجبال ؛ فاستنجد الكونت هوج ملك بروفانس بصهره إمبراطور القسطنطينية ؛ فحاصر هوج فراكسينتوم من البر وحاصرها البيزنطيون من البحر سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م؛ لكنهم فشلوا في مسعاهم[١٩٥]، وظلَّ المسلمون في تلك المنطقة حتى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م عندما تحالف السكان المحليون على طردهم[١٩٦]، وكانت مدة بقاء هذا الحصن في أيديهم أكثر من ثمانين سنة ؛ أي : ثلاثة أجيال ؛ بيد أن الجيل الثالث لم يصمد أمام الفرنجة، وفرُّوا إلى البحر قاصدين الأندلس وصقلية وسواحل تونس[١٩٧].

يصف هايد[١٩٨] هؤلاء مَرَّة بالمغامرين وأخرى بالقراصنة، وينعت آخر دولتهم بدولة القراصنة (pirate state)[١٩٩]، ويرى ثالث أن البحريين الذين أسَّسوا فراكسينيتوم كانوا في بداية أمرهم مجاهدين، ثم تحوَّلوا بعد ذلك إلى قراصنة، حيث ابتعدوا عن أهدافهم الدينية، واقتربوا كثيراً من الأهداف الدنيوية[٢٠٠]، ولكن رصد حال هؤلاء وما دار في بلدانهم التي خرجوا منها ؛ يفسر تصرفاتهم ؛ فقد خرجوا من الأندلس في مرحلة تاريخية عرفت بدول الطوائف الأولى (٢٣٨-٣٠٠هـ)، حيث انزوى كل فريق من فرقاء الأندلس بركنه، وأعلن قيام إمارة، ولم يعد هناك مكان لغير العصبية من المولدين أو المستعربين أو البربر أو العرب، ويبدو أنَّ هؤلاء قد تركوا بلدانهم تحت ضغط إحدى هذه القوى، ورغبة منهم أيضاً في إقامة كيان سياسي مثل إخوانهم في الأندلس، ولم يكن ما فعله إخوانهم البحريون في الإسكندرية وكريت ببعيد في ظل اختلاف المكان والزمان.

## المحارس والرباطات

اعتمد الرومان زمن سيطرتهم على المتوسط على منظومة للدفاع عن السواحل ضد الأعداء والقراصنة. اتَّخذت هذه المنظومة طريقتين: إحداهما موجبة تعوُّل على الدفاع النَّشط عن السواحل، عن طريق قطع الأسطول الروماني الذي يبحث عن العدو قبل أن يدنو من الساحل، والأخرى سلبية، وتتمثل في تحصين السواحل نفسها[٢٠١]، وتستخدم الطريقة الأولى في ظل قوة الإمبراطورية، وتعمل الأخرى في حالات الاسترخاء[٢٠٢]، ويدخل في إطار الطريقة الثانية ما صدر من قوانين في عهد بومبي التي نصَّت على إشراف الإمبراطورية على كامل سواحل المتوسط، فضلاً عن خمسين ميلاً داخل أراضي هذه السواحل[٢٠٣]، ولقد تركت هذه الطريقة الكثير من الحصون والمحارس على طول السواحل المغربية، استفاد المسلمون بها في أغراضهم الدفاعية[٢٠٤]، ويبدو أن سواحل غرب المتوسط اتخذت الطريقة الثانية بعد أن زالت السيطرة الرومانية ومن بعدها البيزنطية، لذلك شيَّد المسلمون المحارس والرباطات على سواحل البحر المتوسط الغربية ؛ لصدِّ عمليات القرصنة والاعتداءات البحرية، وكذلك شيّدت الدول البحرية الأوربية في غربي المتوسط استحكامات دفاعية على سواحلها للغرض نفسه[٢٠٥].

عرفت المياه الإقليمية في العصور الإسلامية الباكرة على ما يبدو، وهي تقدَّر بمسافة رؤية قمة صواري السفن على الساحل، وتكون هذه المسافة البحرية تحت سيادة الدولة، ولابد من تعرف المراكب التي تجتاز هذه المنطقة، ويؤكد ذلك واقعة ظهور سفن على مرأى من موانئ غالة، وتكهن البعض أنَّها تنتمي لتجار يهود،غير أن شارلمان عرف من خلال نظره الثاقب أنها سفن القراصنة النورمان[٢٠٦] الذين يمرون بعيداً عن المنطقة التي يمكن تمييز المراكب فيها من على الساحل حيث تعارف البحارة على كونها تقع تحت سيادة الدولة، ومن الجانب الآخر يحدد ابن ماجد الذي عاش في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجري أنَّ المياه الإقليمية تمتدُّ إلى الحد

الذي يغيب فيه الساحل عن بصر الملَّاح من فوق مركب شراعي وهو يبتعد عن البرِّ، وتقدر هذه المسافة بنحو أربعة أميال بحرية في الظروف المعتادة(٢٠٧).

يحدد ابن المجاور (ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م)(٢٠٨) طريقة رصد المراكب في ميناء عدن من على الجبل أثناء فترة الشروق والغروب في لحظة دخولها المياه الإقليمية عندما يقول "ويكون الناطور (الناظر) قد عرض عوداً قُدَّامه فإذا تخايل له شيء في البحر قاس ذلك الشيء على العود ... فإن كان الخيال مستقيماً على فيء العود ثبت عنده أنَّه مركب"، عندها يكون المركب في المياه الإقليمية، واستنتج أحد الدارسين(٢٠٩) أن المياه الإقليمية في الأندلس كانت تقدر بستة أميال من الشاطئ، وهو استنتاج خاطئ مبني على قراءة مبتورة لنص الإدريسي (ت٥٥٩هـ/ ١١٦٦م)(٢١٠)؛ فالإدريسي يصف المسافة ما بين قرى ومدن بجانة في البر والبحر بمحاذاة الشاطئ، والمسافة في البحر أسرع وأقرب من البر بسبب الطبيعة في هذه المنطقة فيقول: "ومن قرية البجانس إلى آخر (إقليم) الجون – وعليه برج مبني بالحجارة مصنوع لوقيد النار فيه عند ظهور العدو – ستة أميال".

والرِّباط هو نظام دفاعي إسلامي على السواحل الإسلامية، استحدثه المسلمون للعمل كنظام إنذار عندما تتعرض الحدود الساحلية لأي اعتداءات خارجية(٢١١)، وهو مأخوذ من الربط؛ لأنه إذا لازم المرابط الثغر أو الساحل فكأنه قد ربط نفسه به(٢١٢) وكذلك شيّدت الدول البحرية الأوربية في غربي المتوسط استحكامات دفاعية على سواحلها للغرض نفسه(٢١٣) والمحارس هي معاقل ساحلية دفاعية على المدن الساحلية يكلف الحرس بالسهر على مراقبة البحر منها ومن الأبراج المقامة على سور المدينة المواجه للبحر(٢١٤)، والفرق بين النظامين أن الأول نظام حماية يقع على كاهل الأهالي، ولو كان من بناء الحكام، حيث يتطوع الزهاد والمتعبدون والمتصوفة فيه بالدفاع عن البلاد تطبيقا لفريضة الجهاد، لذلك يعتبر مؤسسة عسكرية دينية، أما الثاني فهو حكومي، ويقوم على العمل فيه جند نظاميون، وقد شيَّد المسلمون في الشمال الأفريقي الرباطات والمحارس على الساحل في وقت

باكر لصد غارات القوة البحرية البيزنطية والأوربية وقرصنتها، مثل رباط المنستير الذي بني سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م في عهد الوالي العباسي على إفريقية هرثمة بن أعين، ويعتبر من أقدم رباطات إفريقية[٢١٥]، وهو يقع بين المهدية وسوسة على نحر البحر[٢١٦]، ويورد المالكي[٢١٧] أحاديث عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن فضل الرباط في المنستير يبدو أنها ضعيفة، لكنها للتحفيز على الرباط، ومن أشهر المرابطين في هذا الرباط الفقيه المالكي سعيد بن سحنون ت ٢٤٠هـ[٢١٨].

شهد القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بناء الكثير من الرباطات بإفريقية عندما زاد الصراع على السيادة في غربي المتوسط بين البيزنطيين والأوربيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى، منها رباط قصر الطوب[٢١٩] الذي بناه زيادة الله الأغلبي سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م على حطام حصن أقامه أبوه إبراهيم[٢٢٠]، ويرصد اليعقوبي (ت القرن الثالث الهجري) عددا من الرباطات فيما بين صفاقص وبنزرت[٢٢١] على سواحل إفريقية، وقد كانت الرباطات والمحارس في إفريقية أكثر من غيرها من دول الساحل الأفريقي ؛ لقربها من جزر المتوسط، وسهولة الرسو على سواحلها الغرينية[٢٢٢] التي جذبت كثيرا من سكان الداخل للعمل بالزراعة ؛ فانتشرت القرى والمنازل على الساحل، بخلاف بقية سواحل الجنوب الغربي للمتوسط التي لم تكن جاذبة للسكان لطبيعتها الجبلية حيث يضيق الساحل، وتمثل سلاسل الجبال حماية طبيعية من جهة البحر، وكذلك نشأت الرباطات على سواحل الأندلس، مثل رباط دانية، ورباط القبطة بمرية بجانة الذي أُنشئ رداً على غارات النورمان على السواحل الأندلسية، وغيرهما من الرباطات الكثيرة التي شُيِّدت استجابة للتحديات البحرية[٢٢٣].

ويتمُّ اختيار مكان الرباط على أساس مسافات مدروسة، من حيث قربه من الموانئ، ومن حيث جغرافية المكان[٢٢٤]، وجرت العادة أن تكون الرباطات فوق هضاب صغيرة على الساحل[٢٢٥] ؛ لكشف السفن المعادية أو سفن القراصنة من مسافة بعيدة، فقد كانت هناك إشارات تنبئ المرابطين عن قرب هجوم القراصنة من

خلال تحركات مراكبهم في البحر مما يزيد من استعداداتهم للمواجهة[٢٢٦]، فإذا ما اكتشفوا قدوم أحدٍ منها أشعلوا النار في منارات أعدت لذلك الغرض ؛ إذا كان الوقت ليلاً أو إثارة الدُّخان منها إذا كان الوقت نهاراً[٢٢٧].

يتكون الرباط عادة من غرف لسكنى المرابطين، ومسجد ومنار لرصد المهاجمين[٢٢٨] واعتبر الصالحون المرابطة فيه واجباً شرعيّاً[٢٢٩] ؛ لردِّ قراصنة البحر عن سواحلهم[٢٣٠]، فكانوا يرابطون على الساحل، وبين الحين والآخر يرجعون إلى الداخل؛ لتدريس العلوم الشرعية، وفي كثير من تراجمهم ما يتصل بأدب الرباط[٢٣١]، كما يأتي ضمن مناقبهم عبارة "كثير السياحة والرباط"[٢٣٢] ويرد كثير من الإشارات في تراجم هؤلاء تبيِّن بعض ما يدور في هذه الرباطات من تدريبات عسكرية ؛ لمُلاقاة قراصنة السواحل[٢٣٣]، حيث يترأس الرباط أحد الصالحين يسمى شيخ الرباط[٢٣٤]، وكان الولاة يُهيئون الناس لمُلاقاة أعداء البحر عندما تقلُّ أعداد المُرابطين، ويُقَسِّم الناس إلى نوبات حرس، ويبدو أن منطقة ساحل سوسة كانت من أكثر المناطق المستهدفة على الساحل الجنوبي الغربي للمتوسط من القراصنة حيث يرد ذكر المرابطين على سواحلها كثيرا[٢٣٥]، حيث كان أهلها دائما مستنفرين لرد القراصنة لدرجة أنهم شقوا عصا الطاعة على المعز بن باديس سنة٤٤٥هـ/ "ومنعوه ما كانوا يحملون إليه من المال، وقالوا نحن أولى به لنذب به عن بلدنا"[٢٣٦].

ويورد المالكي (ت ٤٣٨هـ/١٠٤٧م) معركة بين القراصنة الروم وبين المرابطين على ساحل البحر بقيادة الفقيه محمد بن سحنون ت٢٥٦هـ عندما هاجموا سكان منطقة الساحلين التي تقع بين قصر الطوب وسهل بالقرب من سوسة، حيث كانت هذه المنطقة دائما عرضة لهجمات من القراصنة الروم لنهبها واسترقاق أهلها لقربها من الساحل وخلوها من سور يحميها، فعندما ظهر القراصنة وضربوا حصارهم على المنازل تصايح الناس واجتمع المرابطون بقيادة محمد بن سحنون، فوجدوا القراصنة قد أشرفوا على نهب الأموال وسبي الحريم فهزموهم وطاردوهم حتى ولوا الأدبار إلى البحر[٢٣٧].

أما بالنسبة لحماية التجارة البحرية، فقد رافقت الأسطول التجاري الإسلامي قوة حماية من قطع البحرية العسكرية للحماية من الاعتداءات البحرية من الأعداء وسفن القراصنة(٢٣٨)، ويلقَّبون بالعسكر البحرية، ومنذ القرن ٥هـ/ ١١م أصبحت هذه الظاهرة أكثر شيوعاً(٢٣٩)، وتتَّضح هذه الصورة في الطريق البحري بين جنوبي إيطاليا وصقلية وموانئ إفريقية(٢٤٠)، وكذلك على الطريق البحري من الإسكندرية إلى الغرب، وتشير إلى ذلك الرسائل التجارية المؤرخة بسنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م(٢٤١)، كما كان الأسطول الحربي للمدن التجارية الإيطالية يحمي تجارة تلك المدن، وفق أسلوب مماثل لمنهاج مراكب الحراسة في الوقت الحالي(٢٤٢)، وهذه السفن ذات أشرعة ومجاديف سريعة ؛ تسبق القافلة ببعض الوقت ؛ لاستكشاف الطريق(٢٤٣).

# قرصنة جنوة وبيزا ومقدمات الحروب الصليبية

سيطر المسلمون على غربي المتوسط، وقبل ذلك على صقلية والبليار وعلى سردينيا (لفترة بسيطة)، وهاجموا جنوه ونهبوها سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م، وتعرَّضت بيزا إلى المصير نفسه سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م وسنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م، واستحال على المدينتين أن تتوسعا في تجارتهما؛ طالما ظل القراصنة المسلمون مُسيطرين على القسم الغربي من المتوسط، ورأت مدينتا جنوة وبيزا في نفسيهما دويلات على خط المواجهة، عليهما واجبٌ خاصٌّ؛ وهو تطهير غربي المتوسط من القراصنة المسلمين على حد قول أحد الباحثين(٢٤٤)؛ فبدأتا خطتهما بالسيطرة على متوسطة البحر المتوسط من شماليه حتى جنوبيه؛ فاستولوا على سردينيا سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م، ٤٠٧هـ/١٠١٦م واستخلصوها من يد القائد الأندلسي مجاهد بن عبدالله العامري(٢٤٥)؛ فاتجهوا إلى مدينة بونة سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م على ساحل إفريقية واستولوا عليها، وأحكموا سيطرتهم على متوسطة البحر المتوسط بالاستيلاء على المهدية في عهد تميم بن المعز بن زيري ٤٥٤-٥٠١هـ (١٠٦٢-١١٠٧م)(٢٤٦)، وفرضوا شروط سلام على إفريقية، كان من بينها الامتناع عن مواصلة القرصنة(٢٤٧)، وكذلك احتل قراصنة من بيزا وجنوة وبرشلونة جزيرة ميورقة إحدى جزر البليار خلال حكم المرابطين سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م ولم يتركوها إلا بعد سنة عندما حررها منهم المرابطون وولوا عليها من جانبهم(٢٤٨)

مال ميزان القوى ناحية جنوة وبيزا بعد الحملة على بونه، واحترفت الدولتان القرصنة ونهب التجارة الإسلامية ومدن المسلمين الساحلية، ويرى لويس(٢٤٩) أن مغانم القرصنة - لا التجارة - هي الدافع الأساسي لتحريك أساطيل هاتين المدينتين في القرن ٥هـ/ ١١م، وواتتهما الفرصة للظهور؛ بسبب ما انتهى إليه حال المسلمين من ضعف في النصف الغربي من المتوسط، حيث تحرَّكت الدولة الفاطمية صوب مصر، وتحوَّلت بيزنطة حوالي سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م صوب الشرق، وتدهورت

القوى البحرية بصقلية وشمالي أفريقيا إلى حد بعيد، وانهار سلطان الأمويين بالأندلس وخلفتهم دول الطوائف في القرن ٥هـ/١١م التي انشغلت بالصراع فيما بينها؛ فانهارت قوة الأندلس البحرية(٢٥٠)، وعلى الجانب الآخر نهض الغرب اللاتيني من الفوضى والاضطراب اللذين ساداه منذ وفاة شارلمان(٢٥١)، وشجع النصر الذي أحرزته بيزا على كل من الفاطميين وبني زيري على المضي في احتراف القرصنة ونهب تجارة المسلمين بعامة في المتوسط، وكان قسم من مغانم القرصنة يخصص لتدعيم الأساطيل وزيادة عدد قطعها(٢٥٢).

وهكذا أصبحت بيزا وجنوة منذ النصف الأول للقرن الحادي عشر الميلادي صاحبة اليد العليا في متوسطة البحر المتوسط؛ نتيجة عمليات القرصنة ضد سفن وتجارة المسلمين، وإلى هذه القرصنة وما عادت به من أرباح وأموال طائلة، يرجع الفضل في تحويل مدينة بيزا إلى حكومة أرستقراطية غنية(٢٥٣)، وفي فترات الاضطرابات العامة كانت جنوا وبيزا والبندقية تتساهل مع أعمال القراصنة إن لم تكن تشجعها، ولم تكن القرصنة تعرقل تجارة هذه المدن؛ لأنَّ القراصنة كانوا يتسامحون دائما مع مواطنيهم(٢٥٤).

ويرى لويس(٢٥٥) أنه من الخطأ النظر إلى هذا التطور في جنوة ومثيلاتها على أنه مجرد رد فعل لقرصنة المسلمين أو للحصار الإسلامي الذي فرض عليهم، ويصحُّ أنه بدأ كذلك، ولكنه سرعان ما لبث أن تحول إلى طريقة ممنهجة لجمع الثروة، وعلى هذه الثروة اعتمد النمو الاقتصادي فيما بعد؛ بمعنى أن ذهب القراصنة هو الذي بنى جنوة وبيزا كما بنى بلرم والمهدية على حد قوله، ثم تحوَّلت القرصنة إلى تجارة على السواحل الغربية بعد أن تخلَّصت إلى حد ما من قرصنة المسلمين التي تعرضت لها قرون طويلة، وبعدما توافر لها رأس مال كبير من الذهب. وتظهر وثائق الجنيزا التعاون بين المدن الإيطالية في مجال القرصنة، حيث أصبح هناك وسطاء من المدن الإيطالية متخصصين في شراء الأسرى من إخوانهم القراصنة الإيطاليين في عرض البحر، ثم ينقلبون بهم إلى أهليهم للحصول على الفدية منهم(٢٥٦).

ويصف لنا بنيامين التطيلي[٢٥٧] في رحلته التي قام بها فيما بين عامي ٥٦١–٥٦٩هـ مارا بجنوة أعمال القرصنة في جنوة بقوله :" ويقومون بأعمال القرصنة على الروم والمسلمين، فيعودون إلى جنوة بالأسلاب والغنائم الوفيرة "، ويبدو أنَّ الحروب الصليبية كانت نقطة التَّحوُّل ؛ لأن تتحول بيزا وجنوة من عمليات القرصنة ضد المسلمين في المتوسط إلى دور الوسيط التجاري في تجارة الغرب المسيحي مع الشرق الإسلامي[٢٥٨]، ويرجع الفضل إلى البابوية في توجيه قوات بيزا وجنوة وجهة دينية وتوحيدهما لحرب المسلمين، وهو ما يُعتبر مقدمة بعيدة للحروب الصليبية[٢٥٩].

تغيَّر ميزان القوى في غربي المتوسط خلال القرن الخامس الهجري (١١م) لصالح القوى المسيحية ؛ فقد ضعفت السيطرة الإسلامية على هذه المنطقة على الرغم من المحاولات الجريئة التي قام بها مجاهد العامري[٢٦٠]، وبدا واضحاً الخطر الذي يحيق بسفر المسلمين في الحوض الغربي من خلال رسالة الشاعر الصقلي أبي العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الزبيري معتذراً إلى المعتمد بن عباد (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م) صاحب إشبيلية الذي أرسل إليه يستدعيه من صقلية، حيث وصفت رسالته حالة منطقة غرب المتوسط ؛ بأنَّها للرُّوم والسُّفن التي تجري فيه معرضة للهلاك على أيديهم، أمَّا البَرُّ ففي أيدي العرب[٢٦١]، فقد بدأت القوى المسيحية في تجميع قواهم للكَرَّة على العالم الإسلامي[٢٦٢]، وظهرت الرُّوح الصليبية في كل ردود الفعل من جانب المدن الإيطالية، واختلطت مصالحها التجارية مع نوازعها الدينية، بل انقلب زعماء قراصنتهم من مجرد قيادة مجموعة من اللصوص إلى قواد بحريين، يتولُّون قيادة أساطيل أوطانهم في حالة الحرب إذا كان الأمر يتعلَّق بانتماءات قومية ودينية[٢٦٣]، وبدأت الكنيسة في تقلُّد دورها القديم بتوجيه قادة المدن الإيطالية للقضاء على الوجود الإسلامي في جزر المتوسط، حيث تجاوبت بيزا وجنوة مع دعوة البابا بندكت الثامن بطرد العرب من جزيرة صقلية، ووضعت بيزا يدها على الجزيرة،، وتَّبرعت بِسُدس ما غنمته من مهاجمتها ميناء باليرمو سنة٤٥٠هـ/ ١٠٦٢، ٤٥١هـ/١٠٦٣م لبناء كنيسة القديسة ماريا (Maria Maggiore)[٢٦٤].

توالت دعوات الكنيسة للهجوم على المسلمين في عقر دارهم، والتَّبرُّع بالغنائم للكنائس والأديرة، حيث تجلَّى التَّجاوب مع الرُّوح الصليبية في التَّبرُّع بالغنائم التي حازتها بيزا وجنوة وبروفانس بالهجوم على بونة سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م لدير كلوني، كما أن الهجوم على المهدية كان بمبادرة من البابا فيكتور الثالث، حيث وجد أنه من السهل إقناع ضحايا قراصنة بني زيري بيزا وجنوة وروما وأمالفي بالهجوم على مدن الساحل الأفريقي، ورعى البابا الحملة ومعه بندكت راعي كنيسة (Modon)، ورشح البابا قائد الحملة، واشتركت كتائب من قوات الكنيسة تحمل رايتها في الهجوم[٢٦٥] وقد بنى البيازنة والجنويه كنائس القديس سيكستوس(St. Sixtus) بغنائم المهدية[٢٦٦]، ويرى مؤرخو القرن الحادي عشر اللاتين أنَّ الهجوم على المهدية هو الذي بشر بالحملة الصليبية الأولى[٢٦٧]، ويدللون على ذلك بأن البيازنة في هجومهم على المهدية لبسوا شارة الحج، وهو ما يعني الجهاد المقدس، فقد كان الحج والجهاد المقدس صورة واحدة[٢٦٨]، ويرى آخر أن الحرب الصليبية بدأت منذ سقوط طليطلة (Toledo) في أيدي نصارى مملكة قشتالة الأسبانية ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، وسقوط سرقوسة (Syracuse) المدينة الصقلية في العام نفسه[٢٦٩].

تلهَّف حكام أوربا إلى العبور إلى العالم الإسلامي، وركوب موجة توهج الروح الصليبية، حيث طلب بلدوين ملك الفرنج من صهره روجار ملك صقلية مساعدته في غزو إفريقية التي يرتبط معها الأخير بمعاهدات[٢٧٠]، لكنه أشار عليه بغزو القدس حتى يغلف حملته بأهداف دينية يتعاطف معها الشعب المسيحي[٢٧١]، وبذلك تغير هدف الحملة من شمالي أفريقيا إلى الشرق الإسلامي مما يدلل على ضبابية الهدف، وسوء القصد، وتمكنت الحركات الدينية المسيحية تحت إشراف البابوية، وعلى رأسها الحركة الكلونية من تعبئة الشعوب المسيحية في أوربا لحرب المسلمين في بلاد المشرق والمغرب، بعد إعلان البابا أوربان الثاني الحرب على المسلمين في مجمع كليرمون ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م[٢٧٢].

غابت شمس البحرية الإسلامية ونشط قراصنة الغرب المسيحي في مياه

المتوسط، وخير تعبير عن ذلك رحلة ابن جبير الذي فضل السفر من سبتة إلى الإسكندرية سنة٥٧٨هـ/١١٨٢م على مركب جنوى عن طريق جزر البليار، ثم سردينيا فصقلية، ومنها إلى الإسكندرية، والعودة كذلك على مركب جنوى(٢٧٣)، ولم يفكر في أن يستقل مركباً إسلامياً؛ خوفاً من القراصنة المسيحيين(٢٧٤)، ويرى البعض(٢٧٥) أن من أسباب التفوق البحري للغرب المسيحي إبَّان حركة الحروب الصليبية، الابتكار والاستيعاب في مجال التقنية، حيث أصبح ركوب البحر آمناً عن ذي قبل نتيجة التفاعل بين جغرافية المتوسط والتقنية البحرية الجديدة، وكذلك الوضع الفريد للبرجوازية الأوربية في العصور الوسطى، وظهور المبدأ البرجوازي إن لم يكن الرأسمالي، وعلى الجانب الآخر ومنذ نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وبعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر تراجعت البحرية الإسلامية في غربي المتوسط نتيجة أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية مر بها الشمال الإفريقي، وتخلى المسلمون عن مواكبة التقنية البحرية الجديدة، وزاد تراجعها مع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث ضاعت جزيرة صقلية رمانة الميزان في غربي المتوسط، وهجم النورمان على المهدية، وتخلى المسلمون عن جزيرة مالطة، وأصبح غربي المتوسط تحت النفوذ المسيحي بشهادة ابن خلدون(٢٧٦) في مقدمته عندما قال" لهم الكرة في هذا البحر في القرن الخامس الهجري".

# الخاتمة

خلاصة القول فقد رصدت الدراسة عمليات القرصنة التي تمت في غربي البحر المتوسط في فترة القرن ٢-٥هـ/٨-١١م وخلصت إلى أن القرصنة في البحر هي الإغارة وقطع الطريق على السفن، وأن القرصنة لم تختص بها شعوب دون غيرها ولا عقيدة دينية دون سواها، فالأديان السماوية نهت كلية عن نهب أموال الغير ناهيك عن استعباد الإنسان، بل وحضت على أن يكون الإنسان آمناً على نفسه وماله وولده وعرضه. وأبانت الدراسة أن عمليات القرصنة قام بها أفراد وجماعات من الرومان الوثنيين والشعوب الأوربية من المسيحيين أو من العرب والبربر والأندلسيين المسلمين، وإن اختلف الدافع ؛ فكثير من هؤلاء وأولئك احترفوا العمل بمحض إرادتهم رغبة في الثراء السريع على الرغم مما يحف بهذا العمل من مخاطر، وقليل منهم لعبت المصادفة دورها في امتهانهم هذا العمل، حيث كانت الغنائم حافزاً للاشتغال بها، وهناك من أكره على العمل بالقرصنة مثل الأندلسيين، حيث كانت الظروف الصعبة ورحلة التيه هي التي فرضت عليهم القيام بأعمال قرصانية تأتي ضمن صراع الوجود، لأنهم حال خروجهم من ديارهم لم تكن نيتهم القيام بهذه الأعمال، ومن العسف وصفهم بالمجاهدين حيث اختلطت أعمالهم بكثير من الشوائب التي أبعدتهم عن منزلة المجاهدين، أما غزاة البحر المسلمون من برقة وجربة وبقية الساحل حتى طنجة فهم قراصنة حقيقيون منظمون تدعمهم حكوماتهم (Corsair)، أما عن سبق الشعوب المسيحية في العمل بالقرصنة عن المسلمين فيرجع ذلك إلى أن ركوب البحر وصناعة السفن لديهم جزء من حياتهم، وعندما تمكن المسلمون من صناعة الأساطيل وركوب البحر حاكوا المسيحيين في هذا المضمار بل ونافسوهم عليه، لكن لا يمكن مقارنة ما قام به المسلمون بما قام به القراصنة النورمان أو قراصنة المدن الإيطالية وغيرهم نتيجة فارق الخبرة البحرية، ومن ثم فلا ضرورة لإقحام الدين في عمل القراصنة، خاصة أن الدين لم يوفر الأمان للرهائن من القراصنة من إخوانهم أصحاب الدين نفسه.

# الهوامش

١ – Starr, Chester G.! Coastal defense in the Roman world, American Journal of Philology no. 253(1943), pp.60.

٢ – لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة، أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٨٤-١٨٥، ١٨٨.

٣ – محمود إسماعيل، الأغالبة، مكتبة وراقة الجامعة، فاس ١٩٧٨، ص ١٨٨.

٤ – لويس، القوى البحرية والتجارية، ص ١٨٥ - ١٨٨.

٥ – المرجع نفسه، ص ١٨٨.

٦ – يرى أحد الدارسين المحدثين أن معركة ذات الصواري (٣١هـ) أو (٣٤هـ) كانت أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون، كما اجتهد في تحديد مكان المعركة بعد اختبار المصادر العربية والمراجع الأجنبية بأن ثغر فونيكة الذي يقع غرب الإسكندرية بالقرب من مدينة مرسي مطروح هو ميدان هذه المعركة، راجع، شوقي أبو خليل، ذات الصواري، دار الفكر المعاصر، دمشق ٢٠٠١، ص ٥٨-٦٩ ويرى معظم المستشرقين أن مكان المعركة يقع جنوبي آسيا الصغرى، راجع، حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، م٤ لسنة١٩٥٢م، ص٩٠ والحاشية.

٧ – لويس، القوى البحرية، ص١٧٠.

٨ – Krueger,H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095, in a History of crusades vol.1, ed. by Setton, K., Philadelphia1955, p41.

٩ – لويس، القوى البحرية، ص ١٧٠، ١٨٤.

١٠ – عن نشاط البنادقة في اختراق الحظر وتصدير الخشب والرقيق إلى الشواطئ الإسلامية، انظر لويس، القوى البحرية والتجارية، ص ١٧٩؛

ويشكك لويس في تطبيق هذه الحظر خاصة على موانئ إفريقية فيما بين سوسة وقابس، نفسه ص ١٧٧، وعن تطبيق هذا الحظر على موانئ إفريقية الأخرى، انظر هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة، أحمد محمد رضا، القاهرة ١٩٨٥، ١ ص ١٢٦.

١١ - إدورد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد على أبو ريده، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٩م ٣ص ١٣٦.

١٢ - Citarella, Armand, o., The Relations of Amalfi with the Arab World Before the Crusades, Speculum 42 (1967), p.303.

١٣ - Pryor, Geography, technology, and War Studies in the Maritime History of the Mediterranean 649-1571, Cambidge un.1992, p.89.

١٤ - Ibid, p106.

١٥ - حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ٨٤.

١٦ - المرجع نفسه، ص٩٦.

١٧ - Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea. The Geographical Review II, 1916, p.150.

١٨ - سوف يأتي تفصيل هذا اللقب عند الحديث عن أنواع القرصنة.

١٩ - فتحت ميورقة سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م على يد عصام الخولاني في عهد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م)، وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وظهور ملوك الطوائف، كانت ميورقة وكل الجزائر الشرقية (جزر البليار) تتبع لمملكة دانية برئاسة أسرة مجاهد العامري. وظلت كذلك حتى سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م تاريخ سقوط مملكة دانية في يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، فاستقل برئاستها حينئذٍ عبد الله المرتضى الذي كان والياً عليها من قبل علي بن مجاهد العامري حتى سنة ٤٨٦هـ تاريخ وفاته، فخلفه على ولايتها أحد فتيانه وهو مبشر بن سليمان إلى غاية سنة ٥٠٨ هـ/١١١٤م، وهو

التاريخ الذي تعرضت فيه ميورقة للغزو الإسباني الذي اتحدت فيه جمهوريتا بيزة وجنوة وإمارة برشلونة، وهو أول غزو إسباني لها منذ فتحها، ولكن سرعان ما استعادها المرابطون في أواخر سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م وعينوا عليها والياً جديداً هو أنور بن أبي بكر اللمتوني، فأضحت بذلك الجزائر الشرقية جزءاً من الدولة المرابطية الكبرى ودخلت في عهد جديد من تاريخها، سيما بعد تعيين محمد بن غانية المسوفي والياً عليها سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦م، من قبل الأمير علي بن يوسف. واستطال حكمه لتلك الجزائر زهاء ثلاثين عاماً، أي إلى مابعد سقوط الدولة المرابطية في المغرب والأندلس. وعمل على توطيد سلطانه هناك والاستقلال بشؤونها، وجعل منها ملجأً ومثوى للوافدين والفارين من فلول لمتونة أمام الموحدين. وبعد وفاته سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥م خلفه على ولاية ميورقة ابنه عبد الملك الذي لم تطل ولايته إذ خلفه أخوه إسحاق بن محمد حتى تاريخ وفاته سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣م. ووليها ابنه عبد الله منذ سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م حتى سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣م تاريخ افتتاحها من طرف الموحدين. راجع، محمد بن معمر، قراءة في مخطوط تاريخ ميورقة لأبي عمير المخزومي، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٩٨لسنة ٢٠٠٥م.

٢٠ - Pryor, Geography, Technology, and War, p105

٢١ - كلمة قرصان معربة عن الكلمة الإيطالية carsale, راجع، The Encyclopedia of Islam, New Edition, Leiden, 1986, 5, p.502.

٢٢ - Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, Liverpool, 1924, p59.

٢٣ - The Encyclopedia of Islam, 5p.502.

٢٤ - الونشريسي، أحمد بن يحي ت٩١٤هـ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١م، ص٣٠٢

٢٥ - في ترجمة لولد الإمام سحنون محمد ت٢٥٦هـ الذي كان ينقطع للعبادة وللحرس على المسلمين في قصر الطوب يقول الراوي: " فنزلت قطاع الروم بساحل ذلك البحر "، راجع، المالكي، أبا بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، دار الغرب الإسلامي، ط٢ بيروت ١٩٩٤م، ١ص٤٤٦

٢٦ - Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea, p.134.

٢٧ - حسن أميلي، مسألة الجهاد البحري بين القرصنة ولصوصية البحر، البحر في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني - المحمدية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات رقم ٧، ص١١٤

٢٨ - نقلا عن حسن أميلي، المرجع نفسه، ص١١٢

٢٩ - حسن أميلي، المرجع نفسه، ص١٢٢ والحاشية

٣٠ - لويس، القوى البحرية، ص٢٤١

٣١ - Pryor, Geography, Technology, and War, , p155, لويس، المرجع السابق، ص٢٤١.

٣٢ - إميل لودفيغ، البحر المتوسط، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢م، ص٤٤٥.

٣٣ - Pryor, Geography, Technology, and War, p156.

٣٤ - Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea, p.135.

٣٥ - راجع ابن جبير،رحلة ابن جبير، دار الكتاب المصري اللبناني، ص٢٣٦

٣٦ - Pryor, Geography, Technology, and War, , p87-88.

٣٧ - أماري، المكتبة العربية الصقلية، ليبسك ١٨٥٧م، ص ١٦٣.

٣٨ - Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p18.

٣٩ - Pryor, Geography, Technology, and War, p.88.

٤٠ - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٣٨.

٤١ - Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p28-29.

٤٢ - هيو كينيدي، الفتوحات العربية الكبرى، ترجمة: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٨م، ص٤٦٦.

٤٣ - جون كلود هوكت، العلاقات البحرية والملاحية في البحر المتوسط، ترجمة لمياء الأيوبي، ضمن كتاب، ابن خلدون، البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٧م، ص٢١٢، ولكن في العصر الحديث . في بداية القرن الثامن عشر الميلادي . رفعت سفن القراصنة علم القرصان (Jolly Roger)؛ لإرهاب السُّفن، مرسوما عليه الجمجمة والعظمتان المُتقاطعتان، ثم تطور إلى أشكال أخرى.

٤٤ - The Encyclopedia of Islam, 5p.503.

٤٥ - ابن رشد، المقدمات الممهدات، دار الكتب العلمية، بيروت٢٠٠٢م ١ص١٧٨، ١٨٣.

٤٦ - حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ص٩٨، ١١٤.

٤٧ - حسن أميلي، مسألة الجهاد البحري، ص١١٣.

٤٨ - Francesco Gabrieli, Greeks and Arabs in the Central Mediterranean area, Dumbarton Oaks Papers, vol.18 (1964), p59.

٤٩ - Pryor, Geography, Technology, and War, p156.

٥٠ - Ibid, p 155.

٥١ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م، ٩ ص ١٦١، ٢٨٦؛ يشير ابن الأثير إلى جزيرة جربة باعتبارها مركزا لنشاط القراصنة عندما يقول: (أهلها لا يدخلون تحت سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطريق) وفي نهاية القرن

٥هـ/١١م. أصبحت جزيرة جربة الملاذ الحقيقي للقراصنة المسلمين (Pirates)، ولم يهاجموا السفن المسيحية فقط بل أزعجوا شواطئ تونس كلها في سنة ٥١٠هـ/١١١٦م فتحها علي بن يحي، لكن سرعان ما دخلت تحت حكم النورمان سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م.

٥٢ - حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، نقلا عن بروفنسال ص١٢٧.

٥٣ - Pryor, Geography, Technology, and War, p105.

٥٤ - Mediterranean Society, Jewish Communities of Arab World as Partrayed in Documents of the Cairo Geniza 969-1250, University of California, 2p.327.

٥٥ - أدت عمليات القرصنة بين الأمويين السنة ضد الفاطميين الشيعة إلى إشعال صراع بحري بين الدولتين عندما اعترض مركب أموي تابع للخليفة عبد الرحمن الناصر كان في طريقه للمشرق مركبا فاطميا قادما من صقلية إلى المعز الفاطمي في المهدية، واستيلاء الأول على محتويات مركب الفاطميين بما فيهم مكاتبات مهمة من صقلية إلى المعز، هذه القرصنة المدعومة من الحكومة الأموية أدت إلى إشعال صراع بحري بين الجارتين التي يفصل بينهما البحر؛ عندما وجه المعز أسطولا إلى المرية تصادف عند وصوله عودة المركب الفاطمي الذي ارتكب عملية القرصنة؛ فأحرقوه ومعه عدد من المراكب الرأسية في الميناء، تبع ذلك رد فعل أموي بتوجيه حملات على مراسي المغرب، راجع وصف الحادثة في، القاضي النعمان ت ٣٦٣هـ، المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب القاضي وآخرين، دار المنتظر، بيروت ١٩٩٦م، ص ١٦٥-١٦٧، أماري، المكتبة العربية الصقلية، ٤١١،٤١٢؛ ويري دوزي أنه ربما ارتاب عبد الرحمن الناصر في أن يكون في المكاتبات التي حملها المركب خطة مهاجمة الأندلس، المسلمون في الأندلس، ٢ص٤٦.

٥٦ – khalilieh, Islamic Maritime Law, Brill1998, p174.

٥٧ – Pryor, Geography, Technology, and War, p159.

٥٨ – Loc. Cit.

٥٩ – Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea, p.135.

٦٠ – Ibid, pp.135, 136.

٦١ – Ibid, p.135.

٦٢ – Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p151.

٦٣ – التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد أحمد، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس ١٩٨١م، ص ٨.

٦٤ – ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ سورة الكهف الآية ٧٩.

٦٥ – Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p151.

٦٦ – Ibid, p14.

٦٧ – Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea, pp.146.

٦٨ – المالكي، رياض النفوس، ١ ص٤٢١.

٦٩ – ابن الأثير، الكامل، ٩ ص٢٨٦، ١٦١.

٧٠ – السيد عبد العزيز سالم، تفوق الفاطميين البحري في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت١٩٩١م، ص٢٥، وتسمى أيضاً انبدوشة أو لنيدوشة وهي جزيرة صغيرة خالية من السكان يتخذها المناشون للسواحل التونسية، المالكي، رياض النفوس، ١ تعليق المحقق هامش ١٨ ص٧.

٧١ – ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار الحياة، بيروت، ص٧٦.

٧٢ – التجاني، رحلة التجاني، ص٦٧.

٧٣ – Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p 14.

٧٤ – Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea, p.137.

٧٥ – هيو كينيدي، الفتوح العربية الكبرى، ص٤٥٦.

٧٦ – حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس ١٩٨١م، ص٢٩.

٧٧ – الونشريسي، المعيار، ٨ص٣٠٢.

٧٨ – Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea, p.151.

٧٩ – Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p 503.

٨٠ – القوى البحرية والتجارية، ص٢٣٩.

٨١ – أماري، المكتبة العربية الصقلية، ص٧.

٨٢ – The Encyclopedia of Islam, 5 p. 504.

٨٣ – Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p 31.

٨٤ – Pryor, Geography, Technology, and War, p. 155.

قل الرقيق بسبب تحول كثير من أهل شمالي أوربا إلى المسيحية، ومن ثم زاد عليه الطلب وأصبح مع الذهب أهم سلعتين في تلك الفترة.

٨٥ – دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م، ٢ ص٣٨.

٨٦ – المالكي، رياض النفوس، ١ ص٤٤٦-٤٤٧، اهتم القراصنة في كل منطقة بالسلعة التي تحقق لهم مكاسب أكثر، فإن اهتم قراصنة سواحل المتوسط بالعبيد كانت الخيول من أهم غنائم قراصنة المحيط الهندي، راجع Simon

Digby, The Maritime Trade of India, in The Cambridge Economic History of India, 1200-1750. Edited by Tapun Raychaudhuri, Cambridge University 1982, p154.

٨٧ – Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p31; The Encyclopedia of Islam, 5 p.504.

٨٨ – Mediterranean Society, 2 p.329.

٨٩ – Ben Sasson, Italy and Ifriqia From the Ninth to the Eleventh Century, in "Les Relation Intercommunautaires Juives en Mediterranee Occidentale, x111e-xxe siecles, Paris, 1982, p38.

٩٠ – ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، تحقيق:محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨٥، ص١٩٧.

٩١ – Goitein, Mediterranean Society, 2p.329.

٩٢ – حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية، مكتبة المنار، تونس ١٩٨١م، ص٥١.

٩٣ – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، نقلاً عن بروفنسال، ص١٢٨.

٩٤ – Pryor, Geography, Technology, and War, pp.155.

٩٥ – الونشريسي، المعيار، ٨ ص٣٠٢.

٩٦ – ابن رشد (الجد)، البيان والتحصيل، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨م، ٩ ص١٤٨.

٩٧ – khalilieh, Islamic Maritime Law, p72.

٩٨ – هايد، تاريخ التجارة، ١ ص١٩١-١٩٢.

٩٩ – Citarella, Armand, O., Patterns in Medieval Trade: The Commerce of Amalfi Before the Crusades, p544.

١٠٠ – ابن الأثير، الكامل، ٥ ص٩٦.

١٠١ – محمود إسماعيل، الأغالبة، ص١٢٦.

١٠٢ – هايد، تاريخ التجارة، ١ ص٦٧.

١٠٣ – المرجع نفسه، ١ ص٦٨.

١٠٤ – الإمبراطور لويس الثاني أتهم في وثيقة نابولي بأنها أصبحت بمثابة بالرمو أخرى، أي تابعة لأفريقية لأن نابولي كانت توفر للقراصنة العرب مأوى أمينا، وتزودهم بالأسلحة والمؤن وتقتسم معهم الأسلاب، راجع هايد، تاريخ التجارة، ١ص١١٤.

١٠٥ – عقد إبراهيم بن الأغلب اتفاقية مع بطريرك صقلية عام ١٩٠هـ/٨٠٥م، وعقد أبو العباس إبراهيم الأغلبي صلحاً مدته عشر سنوات مع بطريرك صقلية جريجوري سنة ١٩٨هـ/٨١٣م، انظر فازيليف، العرب والروم ترجمة، محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة ص ٦٤.

١٠٦ – Krueger, the Italian Cities, P. 43.

١٠٧ – المالكي، رياض النفوس١، ص٢٧٠.

١٠٨ – فازليف، العرب والروم، ص٦٧.

١٠٩ – ابن الأثير، الكامل، ٥ص٤٣٦، فازيليف، العرب والروم، ص٦٧.

١١٠ – محمود إسماعيل، الأغالبة، ص١٨٥.

١١١ – هايد، تاريخ التجارة، ١ص١١٤.

١١٢ – Krueger, H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095, p52.

١١٣ – Ibid, p.41.

١١٤ – هايد، تاريخ التجارة، ١ص٧٦.

١١٥ – ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج. س كولان، ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب ط٣ بيروت ١٩٨٣م، ٢ ص٩٧، ٩٦.

١١٦ – لويس، القوى البحرية، ص٢٣١-٢٣٢.

١١٧ – ابن عذارى، البيان المغرب، ٢ ص٩٦.

١١٨ – المصدر نفسه، ٢ ص٩٧.

١١٩ – ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقية، دار عمار، عمان الأردن ١٩٩٨م، ١٣٦-١٣٧ والحاشية.

١٢٠ – khalilieh, Islamic Maritime Law p72.

١٢١ – الكامل، ٩ص٣٢٥.

١٢٢ – khalilieh, Islamic Maritime Law p135.

١٢٣ – ابن الثمنة من القواد المسلمين الذين انتزوا بسرقوسة وقطانية، واستقوى بالنورمان على المسلمين، واشترك معهم في حصار مدن المسلمين في صقلية، راجع ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة، ط٣ بيروت، ١٩٩٣م، ص١١٠، راجع ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمالي أفريقيا، ص١٣٤-١٣٦.

١٢٤ – Goitein, Mediterranean Society, 2p340.

١٢٥ – المالكي، رياض النفوس١،ص٤٢١.

١٢٦ – جاء ذلك في ترجمة أبو محمد عبد الله بن أبي المهزول المتعبد ت٣٣٩هـ الذي يسكن مرسى الياقوتة بناحية بنزرت، راجع، المالكي، رياض النفوس٢،ص٣٧٦.

١٢٧ – القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص١٧٩-١٨٠.

١٢٨ – صابر دياب، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، العدد الرابع، ١٩٧٣م، ص٧، ٨.

١٢٩ – الونشريسي، المعيار، ٨ ص٣٠٢.

١٣٠ – القوى البحرية، ص٢٥٥.

١٣١ – المرجع نفسه، ص٢٤١.

١٣٢ – المالكي، رياض النفوس، ٢ ص٢٢٣.

١٣٣ – جوايتاين، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٨٠م، ص٢٤٥.

١٣٤ – Pryor, Geography, Technology, and War, p106.

١٣٥ – هيو كينيدي، الفتوح العربية الكبرى، ص٤٤٦.

١٣٦ – Mediterranean Society, 2p.328.

١٣٧ – هايد، تاريخ التجارة، ١ص١٣٦، داود أبو العافية، دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي خلال العصور الوسطى، ضمن كتاب التأثير العربي في أوربا، تحرير، ديونيسيوس آجيوس، ريتشارد هيتشكوك، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ١٩٩٩م، ص١٩–٢٠.

١٣٨ – Cowdrey, H., E., J., The Mahdia Campaign of 1087, The English Historical Review, no. CCCLXII, 1977, p8.

١٣٩ – Krueger, H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095, p52.

١٤٠ – Ibid,p.41.

١٤١ – مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، الدار البيضاء ١٩٨٢م، ص٥٩.

١٤٢ – عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٠م، ص١٨٩-١٩٠.

١٤٣ – Ben Sasson, Italy and Ifriqia From the Ninth to the Eleventh Century, p38.

١٤٤ – Mann, Jacob, The Responsa of the Babylonian Geonim as A Source of the Jewish History, (J.Q.R) 9, 1918-19, pp168, 169.

١٤٥ – راجع، عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي،دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠٠م، ١٤٥–١٤٦ والحاشية.

١٤٦ – Citarella, Armand, O., Patterns in Medieval Trade: the Commerce of Amalfi Before the Crusades p544.

١٤٧ – Goitein, Mediterranean Society, 2p.329.

١٤٨ – Ben Sasson, Italy and Ifriqia From the Ninth to the Eleventh Century, p38.

١٤٩ – The Encyclopedia of Islam, 5p.504.

١٥٠ – Pryor, Geography, Technology, and War, pp.153, 154.

١٥١ – أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ص١٤٤–١٤٥.

١٥٢ – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ص٩٩.

١٥٣ – أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، مؤسسة شباب الجامعات، الإسكندرية، ٢ ص١٥١.

١٥٤ – ابن الأثير، الكامل ٥، ص٤٨٠.

١٥٥ – المصدر نفسه، ٥ ص٤٣٨.

١٥٦ – السيد عبد العزيز سالم وتاريخ مدينة المرية الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩م، ص٣٣–٣٤.

١٥٧ – " وفي سنة ٢١٥ كان غزو فرغلوش؛ فأخذوا القلاع، وسبوا، وغنموا في بلاد الروم، ثم سئلوا إغاثة من كان من المسلمين بها؛ فأجابوهم على أن يكون أمر الناس إلى فرغلوش" راجع ابن عذارى، البيان المغرب، ١ ص١٠٤.

١٥٨ – حسب المذهب المالكي ينبغي على المجاهد أن يعقد نيته على الجهاد، راجع ابن رشد، المقدمات الممهدات، ١ ص١٧٨.

١٥٩ – محمود إسماعيل، الأغالبة، ص١٢٧-١٢٨.

١٦٠ – Krueger, H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095, p44.

١٦١ – العرب والروم، ص١١٥-١١٦.

١٦٢ – أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ٢ص١٥١.

١٦٣ – سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢ ص٢٣٠.

١٦٤ – المرجع نفسه، ٢ ص٢٣٣.

١٦٥ – ابن عذارى، البيان المغرب.

١٦٦ – راجع، ابن رشد، المقدمات والممهدات، ١ص١٧٤؛ فكانت الهدنة والحرب مع روم صقلية ما كانت لتتم إلا بعلم الخلافة العباسية في بغداد (الإمام) أو بموافقتها الضمنية على الأقل (سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ٢ص٢٢٩) ومن ثم تكون عملياتهم مغلفة بغطاء شرعي، وفي الأندلس زمن الخليفة الناصر الأموي ما كان الأسطول الرسمي للخلافة يغزو إلا بأمر الخليفة (الإمام) راجع، ابن حيان، المقتبس، تحقيق، شالميتا، مدريد، ١٩٧٩م، ٥ ص٣١٢-٣١٣

١٦٧ – "أما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي (قائد البحريين في كريت)، ومن صار معه من أهل بلدنا في خضوعهم لابن مارده (الخليفة العباسي المعتصم) ودخولهم في طاعته، وما سألت من النظر في أمورهم والإنكار لفعلهم، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم وأباقهم، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم ونكفيك مؤونتهم" ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود علي مكي، ٢، الرياض ٢٠٠٣ ص٢؛ ليفي بروفنسال، المسلمون في المغرب والأندلس، ترجمة عبد العزيز سالم، الإسكندرية ١٩٩٠م، ١١٥-١١٨.

١٦٨ – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ص١٢٧.

١٦٩ – في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢١٧.

١٧٠ – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ص١٢٧.

١٧١ – المرجع نفسه، ص١٣٦.

١٧٢ – Francesco Gabrieli, Greeks and Arabs in the Central Mediterranean area, Dumbarton Oaks Papers, vol.18 (1964), p59.

١٧٣ – Pryor, Geography, Technology, and War, p105.

١٧٤ – انظر، ابن حيان، المقتبس، ٥ص٣٦٦،٢١٣-٣٦٧.

١٧٥ – المصدر نفسه، ٥ص٤٥٤-٤٥٥.

١٧٦ – المصدر نفسه، ٥ص٤٧٨.

١٧٧ – باري ميناء مهم في الجنوب الشرقي الإيطالي يتحكم في مدخل البحر الأدرياتي، وقبل استيلاء المسلمين عليه كان تابعا للدولة البيزنطية، وبه صناعة للسفن، وهو محطة بين مواني المنطقة، راجع، الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٩م، ٢ ص٧٦٣، طرخان، المسلمون في أوربا، ص٢١٥.

١٧٨ – اختلفت الفرضيات حول أصلهم فيما بين أنهم من كريت أي أندلسيين وبين أنهم من الأغالبة، راجع، طرخان،المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦م، ص٢١٦.

١٧٩ – البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٧م ١ص٢٣٦.

١٨٠ – يصف برنارد الحكيم ميناء باري أثناء استعداده لرحلة الحج إلى القدس بوجود أربع سفن تحمل ستة آلاف أسير مسيحي من إقليم بنفنتم تستعد للإبحار إلى مواني تونس بخلاف السفينة التي استقلها إلى الإسكندرية التي حملت هي الأخرى ستة آلاف أسير، راجع

Bernard the Wise, the Voyage of Bernard the Wise, in Early Travels in Palestine, ed. by Thomas Wright, London 1848, p24.

١٨١ – القوى التجارية ص٢٧٥.

١٨٢ – داود أبو العافية، دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي، ص٢٢.

١٨٣ – Bernard, the Voyage of Bernard the Wise, p23, 24.

١٨٤ – تاريخ المغرب العربي، ٢ص٢٦٥.

١٨٥ – انظر قبله.

١٨٦ – تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الحياة، بيروت ١٩٦٦م، ص١٦٠.

١٨٧ – يرصد مؤرخ معاصر للأحداث وهو مؤرخ دير نوفاليزة اشتراك زعماء من بروفانس مع العرب خلال عملياتهم، ويروي أن خلافا حدث بين أحد زعماء العرب وبين آخر بروفنسي يدعى إيمون على توزيع الأسلاب عندما استأثر إيمون بإحدى السبايا الجميلات؛ فانتزعها منه الآخر مما أثار حفيظة إيمون وذهب إلى الكونت روتبلدس صاحب السيادة في بروفانس ليساعده مع الأمراء الآخرين في طرد العرب، راجع شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص١٧٥.

١٨٨ – يحقق الأمير شكيب أرسلان موقع الحصن بالاعتماد على المراجع الفرنسية والإيطالية، (راجع، تاريخ غزوات العرب، ص١٦١-١٦٢)، ويتبنى رأي أحد المؤرخين الفرنسيين ويدعى رينو في بحث له بعنوان غارة العرب على فرنسا نشر سنة ١٨٣٦م أن جبل القلال الذي ورد عند الأصطخري وابن حوقل هو فراكسينيتوم، (راجع، أماري، المكتبة الصقلية، ص٣، ١١؛ شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص١٦٥)، ويرى آخر أن فراكسينيتوم هي فرخشنيط التي ورد ذكرها عند ابن حيان في معرض حديثه عن تأمين تجارة برشلونة إلى الأندلس أيام الخليفة الناصر باعتبارها من أعمال الأندلس حيث يقول: "وسأله (أحد ملوك برشلونة

ويدعى أنجه) تأمين تجار أرضه على الاختلاف إلى الأندلس... ونفذ (من الناصر) العهد إلى نصر بن أحمد القائد بفرخشنيط " (راجع ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، مدريد ١٩٧٩م٥،ص٤٥٤)، وبذلك يؤكد تبعية فراكسينيتوم إلى الخليفة الناصر باعتبار أنها فرخشنيط المعربة من الأصل اللاتيني Fraxinetum, Fraxinet، (عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م، ص١٩٠-١١٠)، ويدلل على تأكيده بما ورد عند ابن حوقل بأن جبل القلال مضاف إلى عمل جزيرة ميورقة (ابن حوقل، صورة الأرض، ص٢٠٤) لكن الغريب أن المصادر العربية صمتت عن وصف سقوط هذا الحصن مما أثار دهشة الكاتب، راجع (عصام سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص١٢٠).

١٨٩ – لويس، القوى البحرية، ص٢٣٠.

١٩٠ – هايد، تاريخ التجارة ١ص١٠٨-١٠٩،

Krueger, H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095, p51.

١٩١ – محمد السماك، المسلمون على جبال الألب،

http://www.weghatnazar.com/article/article_details.

١٩٢ – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، نقلا عن بروفنسال، ص١٢٧.

١٩٣ – أجبر أتون ملك الألمان البابا على تتويجه بتاج الأمبراطورية بعد تغلبه على برانجة ملك لونباردية؛ فقام ادالبرت ابن الأخير بالاستعانة بعرب فراكسينتوم للمطالبة بملك أبيه، راجع شكيب أرسلان، غزوات العرب، ص١٨٥.

١٩٤ – شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ١٦٦، ١٦٧.

١٩٥ – المرجع نفسه، ص١٧٣.

١٩٦ – لمزيد من التفاصيل عن البحريين الأندلسيين وفراكسينيتوم راجع، عبادة كحيلة، أندلسيات، ط٢ القاهرة ٢٠٠١م، ص١٤٥–١٨٧.

١٩٧ – شكيب أرسلان، غزوات العرب، ص١٨٩–١٩١.

١٩٨ – تاريخ التجارة، ١ ص.١٠٨،١٠٩.

١٩٩ – The Encyclopedia of Islam, 5 p.503.

٢٠٠ – محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨١م، ص١٩٤–١٩٥.

٢٠١ – Starr, Coastal Defense in the Roman world, p.56.

٢٠٢ – Ibid, pp.69-70.

٢٠٣ – Ibid, pp.60.

٢٠٤ – العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٩٢.

٢٠٥ – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، نقلا عن بروفنسال، ص١٢٨.

٢٠٦ – هايد تاريخ التجارة ١، ص١٤٢ هامش ٢.

٢٠٧ – أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت العدد رقم ١٣ لسنة ١٩٧٩م، ص٢١٩.

٢٠٨ – المستبصر، صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز، تصحيح وضبط، اوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٥١م، ص١٣٨.

٢٠٩ – Khalilieh,p138, Islamic Maritime.

٢١٠ – نزهة المشتاق ٢، ص٥٦٣.

٢١١ – Hassan S. Khalilieh, the RIBAT System and its Role in Coastal Navigation, JESHO 42, 2 1999, pp.212.

٢١٢ – ابن رشد، المقدمات والممهدات، ١ ص ١٨٣.

٢١٣ – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، نقلاً عن بروفنسال، ص١٢٨.

٢١٤ – حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية،ص٥١.

٢١٥ – البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ص٣٦، أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب، الأندلس، الإسكندرية ١٩٦٨م، ص٢٩١ لويس، القوى البحرية، ص١٥٩.

٢١٦ – ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة ليدن، ١٩٣٨م، ص٧٣.

٢١٧ – رياض النفوس، ١ ص٧.

٢١٨ – المصدر نفسه، ١ ص٣٨١.

٢١٩ – يجاور رباط قصر الطوب مدينة سوسة، راجع، المالكي، رياض النفوس، ٢ص٢٢٢.

٢٢٠ – يقول ابن حوقل "وفيها (سوسة) محارس مبنية للرباط بها" راجع، صورة الأرض، ص٧٠؛ عن الطراز المعماري لبناء رباط سوسة راجع، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ٢، ص١٧-٧٢؛

Hassan S. Khalilieh, the RIBAT System and its Role in Coastal Navigation, pp.223, 225.

٢٢١ – البلدان، ليدن ١٨٩٢م، ص٣٥٠.

٢٢٢ – Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea, the Geographical Review, vol.II, 1916p.137.

٢٢٣ – عن رباطات الأندلس راجع، السيد عبد العزيز سالم، أسرات من قادة البحر الأندلسيين في العصر الإسلامي، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١م، ١ ص٥٨٩-٥٩٠.

٢٢٤ – Hassan S. Khalilieh, the RIBAT System and Its Role in Coastal Navigation, JESHO 42, 2 1999, pp.214, 219.

٢٢٥ – راجع، البكري، المغرب، ص٣٥.

٢٢٦ – المالكي، رياض النفوس، ٢ص٢٤٠-٢٤١.

٢٢٧ – أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٥٠.

٢٢٨ – حسن حسني عبد الوهاب، ورقات من الحضارة، ص٢٤-٢٥.

٢٢٩ – يعتبره البعض شعبة من شعب الجهاد، والأجر فيه على قدر الخوف من ذلك الثغر، وحاجة أهله إلى حراستهم من العدو، انظر، ابن رشد، المقدمات الممهدات، ١ص١٨٣.

٢٣٠ – لما دخل عبيد الله المهدي إلى إفريقية، ونزل برقادة ترك أحد الصالحين الرباط في قصر الطوب وأتى القيروان فلما سئل عن ذلك قال: "كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم"، راجع، المالكي، رياض النفوس، ٢ص٣٧.

٢٣١ – وعلى سبيل المثال راجع ترجمة أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبد الرحمن ت٢٩٧هـ الذي كان يرابط بقصر الطوب، ثم يرجع إلى القيروان فيسمع الناس منه، ثم يرجع، وكان يقول: "أحرس عورات المسلمين من هؤلاء القوم (الروم) فإن رأيت منهم شيئاً حركت المسلمين عليهم"، راجع المالكي رياض النفوس، ٢ ص٢٧، ٣٨، وكذلك ترجمة أبو الفضل يوسف ابن مسرور ت ٣٢٤هـ الذي كان كثير الحرس على المسلمين، المالكي، رياض النفوس، ٢ ص٢٤٠.

٢٣٢ – الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: ماضور، مكتبة الخانجي مصر، المكتبة العتيقة تونس ١٩٧٨، م٣، ص١٦، ١٨.

٢٣٣ – في ترجمة أبي سعيد خلف بن محمد بن جرير السرتي اليحصبي ت ٣٢٣هـ "كان يحسن الفروسية مولعا بشراء الخيل ويخرج إلى الرباط بها للحرس على المسلمين والسياحة على البحر، وربما خرج من سوسة هو وأصحابه فيقفون صفاً واحداً كأن العدو بين أيديهم، ويجرون خيلهم في ذلك الموضع حتى تطلع الشمس"، راجع، المالكي، رياض النفوس، ٢ ص١٩٦.

٢٣٤ – الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ٣، ص٢١١.

٢٣٥ - المالكي، رياض النفوس، ٢ ص٢٤٠-٢٤١.

٢٣٦ - التجاني، رحلة التجاني، ص٢٨.

٢٣٧ - المالكي، رياض النفوس، ٢ ص٤٤٦-٤٤٧؛ حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ص٩٣.

٢٣٨ - Goitien, Letters of Medieval Jewish Trade, Princeton University Press1973, p311-315.

٢٣٩ - Khalilieh, Islamic Maritime, p46.

٢٤٠ - عبد الرحمن بشير، العلاقات التجارية بين إفريقية وجنوبي إيطاليا وصقلية، القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي، مجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق، دراسات خاصة، فبراير ٢٠٠٢م، ص٢٢؛
Talbi, Law and Economy in Ifriqiya (Tunisia), in the Third Islamic Century: in the Medieval City, ed by Udovitch and Others, London 1977, p221.

٢٤١ - Goitien, letters, p.311.

٢٤٢ - إميل لودفيغ، البحر المتوسط، ص٤٩٨.

٢٤٣ - Goitien, letters, p.312, cutation, 5.

٢٤٤ - داود أبو العافية، دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي خلال العصور الوسطى، ضمن كتاب التأثير العربي في أوربا، تحرير، ديونيسيوس آجيوس، ريتشارد هيتشكوك، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ١٩٩٩م، ص١٩-٢٠.

٢٤٥ - استعد مجاهد لمشروعه الخطير، فحشد أسطولا وأقلع من 'دانية' في ربيع الأول سنة ٤٠٦ هـ [أغسطس ١٠١٥م] وكانت جزيرة سردانية موضع اهتمام المسلمين منذ فتح الأندلس وقد غزاها المسلمون عدة مرات سنة ٧١١م، ٧٥٢م، ٨١٣م، ٨١٦م، ٨١٧م، ٨٣٨م بيد أن هذه الحملات كلها

كانت عارضة لا تخطط للبقاء بالجزيرة، وكانت هذه الجزيرة تحت حكم الدولة البيزنطية، ثم حكم الإفرنج، ولكنها كانت مستقلة ذاتيا يحكمها قادة محليون.

٢٤٦ – The Italian Cities and Arabs Before 1095, p.52. Krueger.

٢٤٧ – Ibid,p.41.

٢٤٨ – محمد بن معمر، قراءة في مخطوط تاريخ ميورقة، مجلة التراث العربي، دمشق ٩٨ لسنة ٢٠٠٥.

٢٤٩ – القوى البحرية، ص٣١٥.

٢٥٠ – ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقية، ص١٠٥.

٢٥١ – لويس، القوى البحرية، ص٢٩٣.

٢٥٢ – ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقية، دار عمار، عمان الأردن ١٩٩٨م، ص١٠٦.

٢٥٣ – صابر دياب، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، العدد الرابع، ١٩٧٣م، ص٧، ٨.

٢٥٤ – هايد، تاريخ التجارة، ١ ص٢٤٤.

٢٥٥ – القوى البحرية ص٣٤٧.

٢٥٦ – Ben Sasson, Italy and Ifriqia From the Ninth to the Eleventh Century, , p38; Goitein, Mediterranean Society, 2 p.329.

٢٥٧ – رحلة ابن يونه الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي، ترجمة عزرا حداد، دار ابن زيدون، بيروت ١٩٩٦م، ص٥٨.

٢٥٨ – صابر دياب، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ص٣٢.

٢٥٩ – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ص١٦٨.

٢٦٠ – العبادي، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٣١٧.

٢٦١ – حيث قال:

**البحر للروم لا يجري السفين به إلا على الغرر والبر للعرب**

أماري، المكتبة الصقلية، ص٦٢٨–٦٢٩، العبادي، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٣١٧.

٢٦٢ – ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقية، ص١٠٥.

٢٦٣ – هايد، تاريخ التجارة، ١ ص٢٤٤.

٢٦٤ – Krueger, H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095p, 53.

٢٦٥ – ممدوح حسين، الحروب الصليبية في أفريقيا، ص١٣٩.

٢٦٦ – Krueger, H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095p, 53.

٢٦٧ – Cowdrey, H., E., J., The Mahdia Campaign of 1087, p1.

ويختبر الكاتب النصوص اللاتينية والعربية، ويصل إلى هذا التاريخ الذي وضعه في عنوان مقاله كتاريخ صحيح للهجوم على المهدية، راجع p11, ويتفق هذا التاريخ مع ما أورده ابن عذارى في أحداث سنة ٤٨٠هـ، راجع، البيان المغرب، ١ص٣٠١.

٢٦٨ – Cowdrey, H., E., J., The Mahdia Campaign of 1087, p22.

٢٦٩ – ممدوح حسين، الحروب الصليبية في أفريقيا، ص١٤٠.

٢٧٠ – عقد تميم معاهدة مع الإيطاليين دفع بموجبها جزية من الدينارات الذهبية ومنح تجار بيزا وجنوة حرية الوصول إلى المهدية وأطلق سراح السجناء المسيحيين ووعد بإيقاف غارات القراصنة، راجع

Krueger, H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095 p52, 53.

٢٧١ – ابن الأثير، الكامل، ٩ ص١٣.

٢٧٢ – عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص١٢٣.

٢٧٣ – ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت ١٩٨٠م، ص٢٣٦، ٢٨٥، ٢٨٧.

٢٧٤ – khalilieh, Islamic Maritime Law, p174.

٢٧٥ – Pryor, Geography, Technology, and War, p152.

٢٧٦ – المقدمة، دار القلم بيروت ١٩٨٤م، ص٢٥٥.

# المصادر والمراجع

## أولاً – المصادر:

- ابن الأثير، محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق، أبي الفداء عبد الله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٥٩هـ/١١٦٦م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٩م.
- البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ/١١٠٣م)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى بغداد، بدون تاريخ.
- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر (ت٢٧٩هـ/١٢٢٩م) فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٧م.
- بنيامين التطيلي، رحلة ابن يونه الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي ٥٦١-٥٦٩هـ /١١٦٥-١١٧٣م، ترجمة عزرا حداد، دار ابن زيدون، بيروت ١٩٩٦م.
- التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد أحمد (ت٧١٧هـ/، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٩٨١م.
- ابن جبير الأندلسي، أبو الحسن محمد بن أحمد(ولد سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م)، رحلة ابن جبير (٥٦١-٥٦٩هـ)، دار الكتاب المصري اللبناني.
- ابن حوقل النصيبي (من كتاب النصف الثاني من القرن الثالث الهجري)، صورة الأرض، منشورات دار الحياة، بيروت.
- ابن حيان القرطبي (٤٦٩هـ/١٠٧٦م)، المقتبس في أخبار الأندلس، السفر الخامس، نشر شالميتا، المعهد الأسباني العربي للثقافة، وكلية الآداب بالرباط، مدريد ١٩٧٩م، الجزء الثاني، تحقيق، محمود علي مكي، الرياض ٢٠٠٣م.
- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت٦٩٦هـ)، معالم الإيمان في

معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس، مكتبة الخانجي بمصر١٩٧٨م.

- ابن أبي دينار، أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت ١١١٠هـ/١٦٩٨م)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة، ط٣ بيروت، ١٩٩٣م.
- ابن رشد (الجد)، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م):
  - البيان والتحصيل، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨.
  - المقدمات الممهدات، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢م.
- ابن عذارى، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، توفي في القرن الثامن الهجري:
  - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج. س كولان، ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب ط٣ بيروت ١٩٨٣م.
  - البيان المغرب، قسم الموحدين، تحقيق:محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨٥م.
- القاضي النعمان ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م، المجالس والمسايرات، تحقيق، الحبيب القاضي وآخرين، دار المنتظر، بيروت ١٩٩٦م.
- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد (٤٣٨هـ/١٠٤٧م)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، دار الغرب الإسلامي، ط٢ بيروت ١٩٩٤م.
- الونشريسي، أحمد بن يحي (ت٩١٤هـ/١٥٠٨م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١م.
- ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتوح يوسف الشيباني الدمشقي، (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز، تصحيح وضبط، اوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٥١م.

## ثانياً – المراجع العربية والمترجمة:

- أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، مؤسسة شباب الجامعات، الإسكندرية.
- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.
- السيد عبد العزيز سالم، تفوق الفاطميين البحري في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط:
  - بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١م.
  - تاريخ مدينة المرية الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩م.
  - أسرات من قادة البحر الأندلسيين في العصر الإسلامي، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة،دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١م.
- أماري، المكتبة العربية الصقلية، ليبسك ١٨٥٧م.
- إميل لودفيغ، البحر المتوسط، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢م.
- أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت العدد رقم ١٣ لسنة ١٩٧٩م.
- جوايتاين، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٨٠م.
- جون كلود هوكت، العلاقات البحرية والملاحية في البحر المتوسط، ترجمة لمياء الأيوبي، ضمن كتاب، ابن خلدون، البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٧م.
- جيبون، أدورد، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو درة، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٩م.
- حسن أميلي، مسألة الجهاد البحري بين القرصنة ولصوصية البحر، البحر في

تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني – المحمدية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات رقم ٧.

- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس ١٩٨١م.
- حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، م٤ لسنة ١٩٥٢م.
- داود أبو العافية، دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي خلال العصور الوسطى، ضمن كتاب التأثير العربي في أوربا، تحرير، ديونيسيوس آجيوس، ريتشارد هيتشكوك، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ١٩٩٩م.
- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الحياة، بيروت ١٩٦٦م.
- شوقي أبو خليل، ذات الصواري، دار الفكر المعاصر، دمشق ٢٠٠١م.
- صابر دياب، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، العدد الرابع، ١٩٧٣م.
- طرخان، إبراهيم علي، المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦م.
- فازيلييف، العرب والروم، ترجمة، محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
- عبادة كحيلة، أندلسيات، ط٢، القاهرة ٢٠٠١م.
- عبد الرحمن بشير، العلاقات التجارية بين إفريقية وجنوبي إيطاليا وصقلية،

القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي، مجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق، دراسات خاصة، فبراير ٢٠٠٢م.

- عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠١م.
- عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م.
- لويس ارشيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة، أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠م.
- ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة عبد العزيز سالم، الإسكندرية ١٩٩٠م.
- محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨١م.
- محمد السماك، المسلمون على جبال الألب، http://www.weghatnazar.com/article/article_details.
- محمد بن معمر، قراءة في مخطوط تاريخ ميورقة لأبي عمير المخزومي، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٩٨لسنة ٢٠٠٥م.
- محمود إسماعيل، الأغالبة، مكتبة وراقة الجامعة، فاس ١٩٧٨م.
- ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقية، دار عمار، عمان الأردن ١٩٩٨م.
- هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة، أحمد محمد رضا، القاهرة ١٩٨٥م.
- هيو كينيدي، الفتوح العربية الكبرى، ترجمة: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٨م.

## ثالثاً – المراجع الأجنبية:

- Bernard the Wise, the Voyage of Bernard the Wise, in Early Travels in Palestine, ed. by Thomas Wright, London 1848.

- Ben Sasson, Italy and Ifriqia From the Ninth to the Eleventh Century, in " Les Relation Intercommunautaires Juives en Mediterranee Occidentale, x111e-xxe siecles, Paris, 1982.
- Cowdrey, H., E., J., The Mahdia Campaign of 1087, The English Historical Review, no. CCCLXII, 1977.
- Citarella, Armand, o., The Relations of Amalfi with the Arab World Before the Crusades, Speculum 42 (1967).
- Ellen Churchill Semple, Pirate Coasts of the Mediterranean Sea The Geographical Review II, 1916.
- The Encyclopedia of Islam, New Edition, Leiden, 1986.
- Francesco Gabrieli, Greeks and Arabs in the Central Mediterranean Area, Dumbarton Oaks Papers, vol.18 (1964).
- Goitein, Mediterranean Society, Jewish Communities of Arab World as Partrayed in Documents of the Cairo Geniza 969-1250, University of California.
- Goitien, Letters of Medieval Jewish Trade, Princeton University Press 1973.
- Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, Liverpool, 1924.
- khalilieh, Islamic Maritime Law, Brill1998.
- Khalilieh, the RIBAT System and its Role in Coastal Navigation, JESHO 42, 2 1999.
- Krueger, H.C, The Italian Cities and Arabs Before 1095, in a History of Crusades vol.1, ed.by Setton, K., Philadelphia1955.
- Mann, Jacob, The Responsa of the Babylonian Geonim as A Source of the Jewish History, (J.Q.R) 9, 1918-19.
- Pryor, Geography, Technology, and War Studies in the Maritime History of the Mediterranean 649-1571, Cambridge University.1992.
- Starr, Chester G., Coastal Defense in the Roman World, American Journal of Philology no. 253(1943).
- Talbi m., Law and Economic in Ifriqiya (Tunisia) in the Third Islamic Century, in the Medieval City, Ed. By Udovitch and others, London 1977.

# Western Mediterranean Piracy
# 2-5 A.H - 8-11 A.D


## Abstract

Piracy in the Western part of the Mediterranean Sea through the period (2nd - 5th / 8th - 11th) centuries played a crucial role upon both the Islamic and the Christian countries. However, there is neither complete nor neutral study about this role as the contemporary historians, the European or the Moslems, have not been objective. In other words, each side has supported the pirates' deeds of his own and condemned the deeds of the other side. Besides, both of them have considered these deeds as a religious duty. In addition, the modern historians have traced their ancestors. Therefore, the role of the pirates in this region needs to be studied in a neutral and objective way.

This study traces what the contemporary and the modern historians of both sides have written and deals with their writings objectively through studying the meaning of piracy in the period in addition to focusing on the difference between the official piracy and the private one. It also discusses their deeds, the region where the pirates came from, and the places where they settled and launched their attacks. Moreover, a great effort has been exerted to discuss the deeds of Andalus sailors and their motives in addition to the results, i.e., whether it was a religious duty or mere attacks for obtaining money.

In short, there were raids on the Northern African and European shores. Furthermore, both sides considered pirates' deeds as a religious duty, i.e., Jihad. As a result, it can be said that the European piracy was the first step in the crusade wars against the Moslem world.

## Author:

**Dr. Abdul Rahman Bashir**

- Doctorate in Islamic history, by Title " The Jews in Maghreb from Islamic Conquest Until the Rise Al Moravid State, 22-462 A.H/642-1060 A.D.
- Associate Professor of Islamic History and Civilization, Faculty of Arts - Zagazig University.

## Publications:

### A. Books:

1 - Al Faqih and Sultan, Scholars, Retirement and State in Western Muslim World, Ein for Humanities and Social Studies, 2010.

2 - The History of Yemen - Conflict of Authority, Jewish Presence, Ein for Humanities and Social Studies, 2009.

3 - Jews in the Arab Maghre, 22-462 A.H/642-1060 A.D, Ein for Humanities and Social Studies, 2001.

### B. Articles:

1 - Jews in Kingdoms Aragon & Castilla, (1391-1492)" THE RISE AND FALLING", The First International Scientific Conference Humanities in the 21st Cetury "New Horizons," The Faculty of Arts, University of Fayoum, March 2012.

2 - The Countryside in Africa through Fatawa Al Burzuli, 841 A.H/ 1430 A.D., Faculty of Arts Journal, Zagazig University, 2012.

3 - Arabs in Al Mohades Time Between Submission and Rebellion, Faculty of Arts Journal, Zagazig University, Spring 2011.

4 - Horses & Horsemanship in Yemen from Islamic Conquest Until End Rasolia State, Journal Egyptian Historian, Department of History, Faculty of Arts, Cairo University, Vol. 37 July 2010.

5 - Trade Relations Between Africa and Sicily, Special Issue, 3 A.H/9 A.D., Faculty of Arts Journal, Zagazig University, 2002.

Monograph 357

# Western Mediterranean Piracy
# 2-5 A.H - 8-11 A.D

**Dr. Abdul Rahman Bashir**
Faculty of Arts - Zagazig University
Egypt